

جامعة الأزهر

كلية أصول الدين والدعوة بالقازيق

أدب الخلاف وضوابط الحوار في الإسلام

إعداد /

الدكتور / حمادة حسن الفخراي

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين

بالقازيق

من ٤٩٧ إلى ٥٩٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد

فإن أمراض الأمة الإسلامية - في عصرنا هذا - قد تعددت وتشعبت وفشت حتى شملت جوانب متعددة من شئون الدين والدنيا، ومما يعجب له ويستغرب أن الأمة لا تزال على قيد الحياة لم تصب منها تلك الأدوية والعلل - بحمد الله - مقتلًا على كثرتها وخطورتها وبعضها كان كفيلاً بإبادة أمة وشعوب لم تغن عنها كثرتها ولا وفرة مواردها، ولعل مرد نجاة هذه الأمة إلى هذا اليوم - رغم ضعفها وهرمها - هو وجود كتاب ربها وسنة رسولها واستغفار الصالحين من أبنائها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١)

ولعل من أخطر ما أصيبت به الأمة الإسلامية من أمراض هو داء (الاختلاف) أو المخالفة ذلك الداء المستفحل المتفشي الذي شمل كل حقل وكل مصر وكل مجتمع وضم في دائرته البغيضة النكدة الفكر والعقيدة والتصور والرأي والذوق والتصرف والسلوك والخلق والنمط الحياتي وطرائق التعامل وأساليب الكلام والآمال والأهداف والغايات البعيدة والقريبة، حتى خيم شبحه الأسود على نفوس الناس فتلبد الجو بغيوم أوهام أمطرت وابلها على القلوب المجدية فأنبتت لقيفا من الأقوام المتصارعة المتدابرة وكأن كل ما لدى هذه الأمة من أوامر ونواه وتعاليم يحثها على الاختلاف ويرغب بالتدابير والتناحر.

والأمر عكس ذلك تماماً فإن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما حرصاً على شيء - بعد التوحيد - حرصهما على تأكيد وحدة الأمة ونبذ الاختلاف بين أبنائها ومعالجة كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقة بين المسلمين أو يחדش أخوة المؤمنين ، ولعل

مبادئ الإسلام ما نددت بشيء بعد الإشراك بالله تنديدها باختلاف الأمة وتنازعها وما حضت على أمر - بعد الإيمان بالله - حضها على الوحدة والإتلاف بين المسلمين وأوامر الله ورسوله واضحة في دعوتها إلى وحدة الصف وإئتلاف القلوب وتظافر الجهود وتساند المساعي.

إن الإسلام ما أكد على شيء مثل تأكيده على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. فالأولى تدعو إلى الإيمان بالله إيماناً نقياً خالياً من كل شائبة والثانية انعكاس عملي تام للأولى ، فمن كان ربهم واحداً ونبيهم واحداً وكتابهم واحداً وقبلتهم واحدة وسبب خلقهم ومعاشهم واحداً لا بد بالضرورة أن تكون كلمتهم واحدة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١)

ولكن المسلمين - للأسف - أخلوا بكلمة التوحيد ، وزهدوا بتوحيد الكلمة.

يقول الدكتور القرضاوي : « ولست من السذاجة بحيث أدعو إلى جماعة أو حركة واحدة تضم جميع العاملين للإسلام في نظام واحد. وتحت قيادة واحدة ، فهذا تقف دونه حوائل شتى - ، وهو طمع في غير مطمع ، إنه لا مانع أن تتعدد الفصائل والجماعات العاملة لنصرة الإسلام ، إذا كان تعدد تنوع وتخصص لا تعدد تعارض وتناقض .. على أن يتم بين الجميع قدره من التعاون والتنسيق ، حتى يكمل بعضهم بعضاً ويشد بعضهم أزر بعض ، وأن يقفوا في القضايا المصيرية ، والهموم المشتركة ، صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص^(٢) ومن ثم فلا بد أن : « تلتقي التصورات وتتوحد المواقف إزاء القضايا الكبرى والقواعد الأساسية ، أما ما عداها من أمور فرعية ، وقضايا ثانوية مما يساعد اختلاف الرأي فيها على الجنوح نحو

(١) الأنبياء : الآية ٩٢

(٢) الصلوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم د/ يوسف القرضاوي ط دار الوفاء

الأفضل والأتمثل فلا خير فيه على أن يكون لهذا الاختلاف ضوابطه وحدوده وقواعده وآدابه ، وألا يؤثر على وحدة فكر الأمة ومواقفها من القضايا الأساسية الكبرى » ^(١) « وإن الذي يدمي القلب حقاً أن يوجد بين الدعاة والعاملين من لا يقدر هذا الأمر حق قدره ، فيبذر بذور الفرقة أينما حل ، ويبحث عن كل ما يوقد نيران الخلاف، ويورث العداوة والبغضاء. ويكون تركيزه دائماً على مواضع الاختلاف ، لا نقاط الاتفاق ، وهو دائماً معجب برأيه ، مزك لنفسه وجماعته متهم لغيره » ^(٢).

وإنني - بعون الله وتوفيقه وحوله وقوته - في هذا البحث : « أدب الخلاف وضوابط الحوار في الإسلام » أحاول - قدر استطاعتي - أن أدلى بدلوي مع علمائنا الأفاضل الذين كتبوا في « فقه الخلاف » وبينوا آدابه وضوابطه وأنه لا بد من احترام رأي المخالف ! لأن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية فقد اختلف الصحابة والتابعون وأئمة الهدى ، فما ضرهم الاختلاف العلمي شيئاً ! ذلك : لأنهم تحلوا بأداب الخلاف ، وتزبوا بزي الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة الجميلة.

وإنني إذ أبين ذلك فإنني أطالب كل مسلم وكل عالم أن ينهل من سير هؤلاء ، أعلام الهدى ومصابيح الدجى. فهم ممن زكاهم النبي ﷺ والمسلم لا يذهب يتلمس القدوة أو الأسوة من يمين أو يسار من شرق أو من غرب إنما يأخذ قدوته وأسوته من هؤلاء لئلا نضل أو ننأى بأنفسنا عن صراط الله المستقيم.

(خطة البحث) :-

لقد حاولت في هذا البحث أن أستفيد بأكبر قدر من الكتب القديمة والحديثة والتي تخدم هذا البحث بطريق مباشر ، سواء منها كتب التفسير والحديث أو معاجم اللغة - وكذلك المراجع الحديثة التي تناولت هذا الموضوع - والتي سأذكرها ضمن البحث وفي خاتمته - كما أنني رتبته هذا البحث على مقدمة ، وتمهيد وسبعة مباحث :

(١) أدب الاختلاف في الإسلام : د/ طه جابر العلواتي : ١٩ إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٢) الصحو الإسلامية : ٦ بتصرف يسير

أما المبحث الأول فقد تحدثت فيه : «عما لا يجوز فيه الخلاف من الحقائق

والمسلمات »

وأما المبحث الثاني : فتحدثت فيه « عما يحتمل الخلاف في الرأي وأسس

هذا الاحتمال ».

وفي المبحث الثالث : تحدثت عن « الحوار العلمي وضوابطه المنطقية

والأخلاقية » ثم المبحث الرابع ، وفيه تحدثت عن « ضرورة احترام رأي المخالف واستهداف الوصول إلى الحقيقة مع نماذج من مواقف الصحابة وعلماء السلف في احترام الرأي المخالف » وأما المبحث الخامس فكان الحديث فيه عن « الفرق بين المراء والجدال الحسن وأمثلة ذلك » ثم المبحث السادس الذي بينت فيه أن « التعصب والجمود من أسباب الجفوة والعدوان على سماحة الإسلام وأمثلة ذلك. ثم المبحث السابع وتحدثت فيه عن سماحة الإسلام في المعاملة والمجادلة.

ووثقتُ البحث بإرجاعه إلى مصادره الأصلية .. وهذا ما تملّيه عليّ الأمانة العلمية ثم في نهاية البحث كانت « أهم التوصيات » والخاتمة وفهرس المراجع وفهرس الموضوعات.

* * * * *

والله أسأل لي وللمسلمين السداد والتوفيق ، وأن يجمع كلمة المسلمين ويوحد بين قلوبهم على حبه وحب رسوله ﷺ ، ويؤلف بينهم .. ويزيل أسباب النفرة والخلاف .. إنه سميع قريب مجيب «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» ^(١) وأردد في كل لحظة وحين قوله تعالى : «وما توفّيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» ^(٢).

(١) اقتباس من الآية القرآنية في سورة البقرة ٣٢

(٢) سورة هود : الآية ٨٨

تمهيد

الاختلاف بين التقرير والتحذير

لا شك أن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر فطري طبيعي ، له علاقة بالفروق الفردية إلى حد بعيد ، إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس أصحاب القدرات الواحدة والنمطية الواحدة ، ذلك أن الأعمال الذهنية والعملية تتطلب مهارات متفاوتة. وكأن حكمة الله اقتضت أن يكون بين الناس بفروقهم الفردية - سواء أكانت خلقية أو مكتسبة ، هيبين الأعمال في الحياة تواجد والتقاء ، وكل ميسر لما خلق له ، وعلى ذلك فالناس مختلفون والمؤمنون درجات ، فمنهم الظالم لنفسه ، ومنهم المقتصد ، ومنهم السابق بالخيرات ... الخ ..

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ^(١) . لكن بدل أن يكون اختلاف وجهات النظر ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوصيته في الرأي والإطلاع على وجهات النظر ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلها ، وإضافة عقول إلى عقل ، انقلب إلى وسيلة للتآكل الداخلي والإنهاك وفرصة للاقتتال : حتى كاد الأمر أن يصل ببعض المختلفين إلى حد التصفية الجسدية وإلى الاستنصار والتقوى بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف ..

إننا اكتسبنا المعرفة وافتقدنا خلقها ، وامتلكنا الوسيلة وضيعنا الهدف والغاية ، وما أكثر ما فوتت علينا خلافاتنا حول مندوب أو مباح أمراً مفروضاً أو واجباً ، لقد أتقنا فن الاختلاف وافتقدنا آدابه والالتزام بأخلاقياته فكان أن سقطتنا فريسة للتآكل الداخلي والتنازع الذي أورثنا هذا الحياة الفاشلة وأدى إلى ذهاب الريح - قال تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ^(٢) ولقد حذرنا الله تعالى من السقوط في علل

(١) سورة هود : آية ١١٨

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٦

أهل الأديان السابقة ، وقص علينا تاريخهم للعبرة والحذر ، فقال ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ (٣١) من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون»^(١)

واعتبر القرآن الكريم الاختلاف الذي يسبب الافتراق والتمزق ابتعاداً عن أي هدى للنبوة أو انتساب لرسولها ﷺ حين قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٢) . ذلك أن أهل الكتاب لم يؤتوا من قلة علم وضالة معرفة ، وإنما كان هلاكهم لأنهم وظفوا ما عندهم من علوم ومعارف للبغي بينهم قال تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(٣) .

وهكذا : كان الاختلاف والبغي وتفريق الدين من علل أهل الكتاب التي كانت سبباً في هلاكهم ونسخ أديانهم وبقاء قصصهم وسائل إيضاح للدروس والعبرة لمن ورثوا الكتاب والنبوة ! ذلك أنه لا سبيل للاستبدال والنسخ في عالم المسلمين وهم أصحاب الرسالة الخاتمة ، وإنما هي الأمراض التي لا تقضي على الجسم نهائياً ، فإما أن تستمر فتعيش الأمة حالة الوهن الدائب ، وإنما أن تعالج فيكون التصويب وتكون المعافاة. ويكون النهوض وإيقاف التآكل الداخلي ، وهذا من خصائص الرسالة الخاتمة^(٤).

ومن هذا المنطلق كان النبي ﷺ دائماً يحث أصحابه على الوحدة والبعد عن الاختلاف من ذلك قوله ﷺ « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »^(٥) وسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرجا - ﷺ يعرف في وجهه الغضب وقال : « إنما هلك من كان قبلكم

(١) سورة الروم : ٣١ : ٣٢

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٩

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩

(٤) يراجع في ذلك : «أدب الخلاف في الإسلام ٨ - ١٠ بتصرف يسير»

(٥) أخرجه البخاري على ما في الجامع الصغير : ٢ / ٤٩٤ . ورواه أحمد في مسنده : ٢٨٨/١٤

باختلافهم في الكتاب»^(١). وكان رسول الله ﷺ - يعلم الصحابة - رضوان الله عليهم - أدبا هاما من آداب الاختلاف في قراءة القرآن خاصة فيقول في الحديث الصحيح : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا »^(٢). أنها لفظة عظيمة من الرسول ﷺ. حين يندبهم للقيام عن القرآن العظيم إذا اختلفوا في بعض أحرف القراءة أو في المعاني المرادة من الآيات الكريمة حتى تهدأ النفوس والقلوب والخواطر .

وتنتفي دواعي الحدة في الجدل المؤدية إلى المنازعة والشقاق ، أما إذا ائتلفت القلوب وسيطرت الرغبة المخلصة في الفهم ، فعليهم أن يواصنوا القراءة والتدبر والتفكير في آيات الكتاب^(٣).

نعم :- فالرسول ﷺ - لا يريد الاختلاف الذي يتصور وتعمق أخذيده فيسيطر على الشخص ويتملق عليه حواسه إلى درجة ينسى معها المعاني الجامعة والصعيد المشترك الذي يلتقي عليه المسلمون ، ويعدم صاحبه الإبصار إلا للمواطن التي تختلف فيها وجهات النظر وتغيب عنه أبعديات الخلق الإسلامي ، فتضطرب الموازين ، وينقلب عنده الظني إلى قطعي ، والمتشابه إلى محكم ، وخفي الدلالة إلى واضح الدلالة ، والعام إلى خاص وتستهوئ النفوس العليلة مواطن الخلاف فتسقط في هاوية تكفير المسلمين - كما نرى ونسمع اليوم - وقد تتقلب الآراء الاجتهادية والمدارس الفقهية التي محلها أهل النظر والاجتهاد ، على أيدي المقلدين والأتباع إلى درب من التحزب الفكري ، والتعصب السياسي ، والتخريب الاجتماعي تؤول على ضوئه آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ. فتصبح كل آية أو حديث لا توافق هذا اللون من التحزب الفكري إما مؤولة أو منسوخة ولعل مرد معظم هذه الاختلافات إنما يعود إلى عوج

(١) ينظر «صحيح البخاري - باب كراهية الاختلاف. (١٣ / ٢٨٩) ورواه مسلم : ك : العلم ب : النهي عن إتياع متشابهة القرآن والتحذير من متبعية : ١٦ / ٢١٨.

(٢) رواد البخاري : ك : فضائل القرآن ، ب : اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم : ٨ / ٧١٩

(٣) أدب الخلاف في الإسلام : ٤٩

فى الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأى ، والطواف حول الذات والافتتان بها ، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق وبالباطل ، الأمر الذي قد يتطور حتى يصل إلى الفجور فى الخصومة والعياذ بالله تعالى ... لقد اختلف السلف الصالح - رضوان الله عليهم - لكن اختلافهم فى الرأى لم يكن سبباً لافتراقهم ، إنهم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا. لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء ، أما اليوم فإن المسلمين قد وجدت بينهم اختلافات لا يعلم مداها إلا الله.

إن الأمة المسلمة عندما سلم لها عالم أفكارها ، وكانت المشروعية العليا الأساسية فى « حياتها للكتاب والسنة » استطاعت أن تحمل رسالة وتقيم حضارة على الرغم من شظف العيش وقسوة الظروف المادية ، فكان مع العسر يسر ، ومع الضيق مخرجاً وفرجاً..

أما المسلمون اليوم فى مواقعهم الكثيرة فإنهم لا يشكون من قلة المادة وتوفر الأشياء ، ومع ذلك انقلبوا إلى أمة مستهلكة على مستوى الأفكار والأشياء معاً لأنهم افتقدوا المعاني الجامعة والقواسم المشتركة ، وغابت عنهم المشروعية الكبرى فى حياتهم وأصاب الخلل بنيتهم الفكرية. إذاً فلا بد من إعادة الصياغة وإعادة الترتيب المفقود لفكر المسلم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرجوع إلى كتب الأصول ، حيث وضع علمائنا الضوابط والقواعد للمقايسة والاستنتاج لضبط الرأى ، وضمان مساره ، واقرن العلم عندهم بأخلاقه .. وتنمية الدراسات التى تؤكد وحدة الأمة وقواسمها المشتركة ، والمنهج التربوي الذى يسلحها بأخلاق المعرفة ، وإبراز النقاط الجامعة ، واعتبار فترات الرفض والخروج وكتب الخلافات حالات مرضية لا يعتد بها ^(١).

فما أحوجنا إلى ذلك لكى تظل الاختلافات تحكمها ضوابط وقواعد وأصول ، وتحملها أخلاق وآداب حميدة.

(١) يراجع فى ذلك : « أدب الاختلاف فى الإسلام » ١٢-١٤ بتصرف يسير

من هنا يأتي هذا البحث خطوة على الطريق ، بعيداً عن التعصب والجمود ، بعيداً عن العنف والعدوان على روح الإسلام الحق والصحيحة. نأخذ من خلاله نماذج وأمثلة لما كان بين علمائنا الأجلاء - رضوان الله عليهم - ، ولما كان بين سلفنا الصالح نتأسى بهم ونقتدي بأخلاقهم ، فمن أجل حوار لا يفسد للود قضية ، كتبت هذا البحث ، داعياً المولى تتبارك وتعالى أن يتقبله بقبول حسن وأن يجعله في خالص عملي ، إنه تعالى سميع مجيب.

وأدعو الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

تحديد المفاهيم

أدب الخلاف وضوابط الحوار في الإسلام

قبل أن أبدأ التحدث في هذا الموضوع :- نقف أولاً على « تحديد المفاهيم »
لعنوان البحث. فإن هذا مما يزيد الأمر وضوحاً وجلاءً.

جاء في المعجم الوسيط : « أدب فلان أدباً : راض نفسه على المحاسن ،
وأدبه راضه على محاسن الأخلاق ، وتأدب : تعلم الأدب ، ويقال : تأدب بأدب القرآن
، أو أدب الرسول : احتذاه ، والأدب رياضة النفس بالتعليم والتهديب على ما ينبغي
، ومنه : أدب الدابة : روضها وذللها»^(١) وهكذا فالكلمة بينة وواضحة في مدلولها ،
وتعني استجماع محاسن الأخلاق وأجملها.

وأما كلمة « خلاف » فكما جاء في المعجم الوسيط : « خلف الشيء خلواً
تغير وفسد ، واختلف الشيئان لم يتفقا ، وتخالفا : تضاداً ، ومن الخلاف : شجر
الصفصاف ، ويقال : خالفه في الأمر : قصده بعدما نهاه عنه ، ومنه : مخلاف : أي
كثير الخلاف»^(٢).

ومن ثم فالمعجم يؤول إلى أن هذه الكلمة مجردة تعني عدم الاتفاق.
وفي المصدر نفسه ترى كلمة « ضبط » الشيء ضبطاً : حفظه بالحزم حفظاً
بليغاً ، وأحكمه وأتقنه ، وضبط البلاد : قام بأمرها قياماً ليس فيه نقص وضوابط :
حكم كلي ينطبق على جزئيات الشيء»^(٣).

وأما كلمة حوار :- فكما جاء في المصدر السابق حار حورا : « أي رجع
وتحاوروا : تراجعوا الكلام بينهم وحاوروه محاوره وحواراً : جاوبه وجادله ،

(١) المعجم الوسيط : أصدره : مجمع اللغة العربية ط دار المعارف : ٩/١ مادة (أدب)

(٢) المرجع السابق : ٢٥١/١

(٣) نفسه : ٥٣٣ / ١ مادة (ضبط)

والحوار : حديث يجري بين شخصين أو أكثر ، والمحاورة : أي المكان الذي يحار فيه أي يرجع^(١).

مما سبق : يتبين أن الضوابط : قواعد وأشياء ثابتة يجب الالتزام بها.
وأما الحوار فهو من الرجوع ومن التهاور والتجاوب .. وسيأتي بيان المزيد لها من المعاني في مكانها من البحث. إن شاء الله.

(١) المرجع السابق : ٢٠٥/١ مادة (حوار)

المبحث الأول

ما لا يجوز فيه الخلاف من الحقائق والمسلمات

من المعلوم : أن من أحكام الشريعة الإسلامية ما هو ثابت عام دائم. ولا مجال فيه للتغيير والاختلاف مهما دار الفلك وتغيرت الظروف والأحوال. وفي هذا يقول « ابن قيم الجوزية » في كتابه « إغاثة اللهفان » : - الأحكام نوعان : « نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، والحدود المقررة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغير ولا اجتهد يخالف ما وضع عليه . » (١)

ويقول فضيلة الشيخ « محمد الغزالي » : « هناك حقائق شرعية يستوي الخاصة والعامة في دركها كأصول العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات ، كما أن المتفق عليه كثير جداً ، وإن التشبث به وحده كاف في النجاة ، فالإيمان بالله ولقائه والسمع والطاعة لما جاء عنه ، وأدام الأركان المجمع عليها في ميدان العبادات ، وترك المعاصي المجمع عليها في ميدان المحظورات ، وبناء النفوس على مكارم الأخلاق وأشرف التقاليد ، وإن هذا كله يقيم أمة لها مكانتها في الدنيا والآخرة » (٢).

ثم يقول : « ولكن جماهير من الدهماء والأذكياء شغلتهما للأسف الخلافات العارضة ولم تحسن استثمار ما انعقد الإجماع عليه ، وكادت تضع الإسلام ذاته بهذا العوج الفكري ، والمذاهب الإسلامية الكبرى اختلفت في الفروع لا في الأصول » (٣).

ويقول الإمام الشهيد « حسن البنا » في هذا الصدد : « معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ، وما يلحق بذلك من المتشابهة نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا

(١) نقلاً عن كتاب : «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» د. يوسف القرضاوي ط

دار الصحوة : ٧٧

(٢) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين «للشيخ الغزالي : ٥٢ ، ٥٤ .

(٣) السابق : ٥٤

نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ - وأصحابه : « والرَّاسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » (١)

ثم يقول : « كل مسألة لا يبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب / رضوان الله عليهم ، وما جرى بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته. (٢)

ويزيد الأمر وضوحاً ، الشيخ « عبد الجليل عيسى » الذي كتب في ذلك كتاباً أسماه « ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين » ، وتحت عنوان « ما لا يسوغ فيه الخلاف » كتب يقول : مما لا يسوغ فيه الخلاف فعل أو قول ، سنة أو مستحب عند قوم يثاب فاعله مكروه عند آخرين ، يلام فاعله ، ومن ذلك :-

١ - النداء قبل صلاة العيد بلفظ « الصلاة جامعة » :

سنة عند الشافعية ، مكروه عند المالكية (٣)

٢ - تسليم الخطيب على المصلين يوم الجمعة بعد صعوده على المنبر وقبل جلوسه :

سنة عند الشافعية والحنابلة. ويجب على المصلين الرد عليه ، مكروه عند المالكية ، ولا يُطلب من المصلين الرد عليه ، وإنما يندب التسليم عند مالك ، ويجب الرد إذا سلم الإمام حال خروجه للخطبة وقبل صعوده على المنبر.

(١) المرجع السابق ، ١٤١. والآية من سورة آل عمران : ٧

(٢) نفسه : ١٤١

(٣) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين : الشيخ : عبد الجليل عيسى الناشر : مكتبة الشعب

٣- رفع اليدين عند كل تكبيرة من تكبيرات صلاة العيد :

مشروع عند أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل .. مكروه عند مالك. ^(١)

٤- دعاء الاستفتاح :

مكروه عند المالكية .. سنة عند الشافعية والحنابلة والحنفية.

٥- شغل الفصل بين كل تكبيرتين من تكبيرات صلاة العيد بذكر الله من

التسبيح والتهليل :

مستحب عند الشافعية .. مكروه عند المالكية ^(٢) .. إلى غير ذلك من

الأمثلة الكثيرة التي ذكرها المؤلف

ومن الأمور التي لا تحتل الخلاف أيضاً :

١- الانتماء إلى الدين والدعوة إليه شريطة أن يكون ذلك على هدى وبصيرة

فذلك أمر الله أنزله إلينا على لسان رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو

إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ^(٣)

٢- الانتماء إلى الوطن وحمايته : فذلك أمر لا مرية فيه ، ولا شك في

وجوبه علينا ، نستلهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

نباتاً ﴾ ^(٤) والمصطفى ﷺ ضرب لنا في ذلك أروع الأمثلة في حبه لبلده

الأول « مكة » التي تربى في أحضانها ونشأ بين دروبها وتنزلت عليه

رسالة السماء من فوق جبالها ، فحينما أخرجه قومه منها نراه يقول

معبراً عن ذلك : « والله لأنت أحب البلاد إليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني

منها ما خرجت ».

(١) يراجع في ذلك : ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين : ١٧ فما بعدها.

(٢) المرجع السابق : ١٧

(٣) سورة يوسف : ١٠٨

(٤) سورة نوح : ١٧

هذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره من : وجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات :
والحدود المقررة بالشرع ، وأصول العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات.
وبناء النفوس على مكارم الأخلاق ، ويشمل التقاليد وغير ذلك كثير.

المبحث الثاني

ما يحتمل الخلاف في الرأي وأسس هذا الاحتمال

وكما أن هناك ثوابت وحقائق لا تتغير ، فهناك كذلك : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً و المدارس لهذه الشريعة وفقهها يرى اتساعاً لمنطقة « العفو » أو الفراغ التي تركتها النصوص قصداً لاجتهاد المجتهدين في الأمة ليملووها بما هو أصلح لهم ، وأليق بزمانهم وحالهم ، مراعية في ذلك المقاصد العامة للشريعة ، مهتدين بروحها.

يدل على ذلك : ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض أشياء فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها »^(١) والخطاب في قوله : « فلا تبحثوا عنها » للصحابة في زمن نزول الوحي ، حتى لا يترتب على بحثهم وتفرعهم تشديد بزيادة التكاليف ، من إيجاب واجبات أو تحريم محرمات ، ولهذا قال في الحديث الآخر : « زروني ما تركتكم »^(٢). وجاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفورٌ حلِيمٌ »^(٣) وإنما سميت « منطقة العفو » أخذاً من الحديث الشريف الذي رواه سلمان « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً »^(٤) ثم تلا « وما كان ربك نسياً »^(٥) وهذا كله يدلنا على أن تقليل التكاليف

(١) رواد الدارقطني ك : الصيد والذبايح والأطعمة : ٢٩٨/٤ عن أبي الدرداء.

(٢) رواد مسلم ك : الحج ب : فرض الحج مرة في العمر : ٣ / ١٥٠ ورواد أحمد في مسنده : ٢٣٦/٩.

(٣) سورة المائدة : ١٠١

(٤) رواد البزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٥/٧)

(٥) سورة مريم : ٦٤

وتوسيع منطقة العفو ، لم يجيء اعتباطاً ولا مصادفة ، وإنما هو أمر مقصود للشارع ، الذي أراد لهذه الشريعة العموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان وحال .

أما ملء هذه المنطقة - منطقة العفو - بالتشريع والتنظيم بعد انقطاع الوحي ، فهو أمر متروك لاجتهاد المجتهدين ، لم يضيق عليهم فيه ، ما داموا أهلاً للاجتهاد . وهنا تتعدد المسالك ، وتتنوع المآخذ من الفقهاء في ملء هذا الفراغ دون أن تضيق الشريعة ذرعاً بواحد منها ، ما دام قد وضع في موضعه ، واستوفى شروطه . هنا تأتي أدلة التشريع فيما لا نص فيه : كالقياس وهو : « إلحاق أمر لم ينص على حكمه بآخر قد نص عليه ، لعله جامعة بينهما ، ولم يوجد فارق معتبر بين الأمرين » . ومثال ذلك : ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه حين أخبره بعض ولاته أن بعض الناس يقتني من الخيل ما يبلغ ثمن الفرس منها قيمة عشرات الإبل ، ومئات الأغنام . فقال : أناخذ الزكاة من أربعين شاه ، ولا نأخذ من الخيل شيئاً؟ وأمر بأخذ الزكاة منها من باب قياس الأولى . وهو ما أخذ به الإمام أبو حنيفة .

ويأتي كذلك : « الاستحسان » والاستصلاح - مع اختلاف الفقهاء في الأخذ به - و « الغرف » ^(١) . ومن الملاحظ كذلك : أن معظم النصوص جاءت في صورة مبادئ كلية وأحكام عامة ، ولم تتعرض للجزئيات والتفصيلات والكيفيات ، إلا فيما كان شأنه الثبات والدوام ، برغم تغير المكان والزمان ، كشئون العبادات والزواج والطلاق والمواريث ونحوها من شئون الأسرة ، فقد عالجتة الشريعة بالتفصيل الملائم ، سداً لباب الابتداع والتحريف في أمور العبادة ، وحسماً للنزاع والصراع في أمور الأسرة ، وإرساء لدعائم الاستقرار في الجانبين معاً ، وهما أخطر أمور الحياة . أما فيما عدا ذلك مما يختلف تطبيقه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد ، فكانت النصوص فيه - غالباً - عامة ومرنة إلى حد بعيد ، لنلا يضيق الشارع على الناس إذا ألزمهم بصورة جزئية معينة قد تصلح لعصر دون عصر ، أو لإقليم دون

(١) يراجع في ذلك كله وفي ضرب أمثلة لها : «عوامل السعة والمرونة في الشريعة

إقليم ، أو لحال دون حال. والشارع الحكيم لم يرد أن يجعل نصوص «لوائح» تنظيمية تفصيلية ، وإنما أرادها منارات هادية لمن أراد السير ، لهذا اهتم بالنص على المبادئ والأهداف ، دون الوسيلة أو الأسلوب إلا في أحوال خاصة.

وذلك : كالأمر بالشورى في القرآن ، فهو أحد دعائم الحكم في الإسلام ، ولكن لم يبين لنا القرآن : ما صورة هذه الشورى ؟ وكيف تتحقق ؟ وخاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكومين .. لأن لكل زمن أسلوبه ، ولكل واقعة ظروفها ولكل بيئة حكمها.

والمأمل كذلك في أمر الشريعة يرى : أنها راعت الضرورات والحاجات والأعذار التي تنزل بالناس فقدرتها حق قدرها ، وشرعت لها أحكاماً استثنائية تناسبها ، وفقاً لاتجاهها العام في التيسير على الخلق ، ورفع الآصار والأغلال التي كانت عليهم في بعض الشرائع السابقة. ومن هنا جاءت القاعدة الأساسية الجليلة التي أجمعت عليها كل كتب القواعد الفقهية وهي « المشقة تجلب التيسير » وبنا عليها شرعت الرخص والتخفيفات الكثيرة في الفرائض الإسلامية : للمرضى والمسافرين ، وأصحاب الأعذار المختلفة وجاء في الحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » ^(١) ومن ذلك أيضاً القاعدة الشرعية الشهيرة : « الضرورات تبيح المحظورات » وما يكملها من قواعد متفرعة عليها مثل « ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها ».

وقد قرر كثير من المحققين كالعلامة ابن القيم وغيره : « أن الفتوى تتغير وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال ، والعوائد والنيات » وعقد الإمام « ابن القيم » . لذلك فصله الممتع في كتابه «إعلام الموقعين» وقال في مقدمة هذا الفصل كلمته التي أصبحت منارا يهتدي به بعد: " هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع - بسبب الجهل به - غلط عظيم على الشريعة ، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا

سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة - التي في أعلى رتب المصالح - لا تأتي به فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها.. فكل مسألة خرجت عن العدالة إلى الجور، وعن الرحمة .. إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل» ^(١) وما قره العلامة «ابن القيم» بقوة ووضوح ، قره غيره من العلماء والمحققين مثل : الإمام القرافي في «الإحكام» وكتابه «الفروق» ومثل العلامة الحنفي «ابن عابدين» في رسالته «نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف» ^(٢)

هل لتغير الفتوى دليل من القرآن والسنة؟

يقول د/ يوسف القرضاوي : « وأما القرآن ، فلم يحاول (ابن القيم) رحمه الله أن يستدل به ، ولم أرَ أحداً غيره حاول الاستدلال به على ذلك أيضاً .. » ثم يقول : ويلوح لي أن من يدقق النظر في كتاب الله ، يجد فيه أصلاً لهذه القاعدة المهمة ، وذلك في عدد من الآيات التي قال كثير من المفسرين فيها : منسوخة وناسخة. والتحقيق أنها ليست منسوخة ولا ناسخة ، وإنما لكل منها مجال تعمل فيه ، وقد تمثل إحداها جانب العزيمة والأخرى جانب الرخصة ، أو تكون إحداها للإلزام والإيجاب ، والأخرى للندب والاستحباب ، أو إحداها في حال الضعف ، والأخرى في حال القوة .. وهكذا.

وذكر مثلاً لذلك وهو قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» ^(٣) ثم قوله سبحانه : «الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ

(١) ينظر في ذلك : «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» مرجع سابق ٣٧ : ٧٦

(٢) المرجع السابق : ٧٨

(٣) سورة الأنفال : ٦٥

بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»^(١) وأكد ذلك المعنى بما فسره به صاحب تفسير المنار ألا وهو : «إن أقل حالة للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين والألف على الألفين ، وأن هذه الحالة رخصة خاصة بحال الضعف ، كما كان عليه المؤمنون في الوقت الذي نزلت فيه الآيات ، وهو وقت غزوة بدر ، فقد كانوا لا يجدون ما يكفيهم من القوت ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، أو فرسان ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ومع هذا كله كانوا أقل من ثلث المشركين الكاملين العدد والأهبة ، ولما كملت للمؤمنين القوة كما أمرهم الله تعالى أن يكونوا في حال العزيمة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر ، وينتصرون عليهم ، وهل تم لهم فتح ممالك الروم والفرس وغيرهم إلا بذلك ؟ وكان القدوة الأولى في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده ثم قال : « ومثل ذلك : آيات الصبر والصفح والعفو ، والإعراض عن المشركين ونحو ذلك مما قال فيه كثير من المفسرين : نسختها آية السيف ، فالحق : أن لهذه الآيات وقتها ومجالها ، ولآية السيف وقتها ومجالها كذلك ، وهذا ما ذكره الإمام «السيوطي» في كتابه «الإتقان» وجعل ذلك من قسم «المنسأ» يعني ينسأ الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون ، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى ولا يعد مثل هذا الأمر نسخاً ، لأن النسخ إزالة الحكم حتى لا يجوز امتثاله »^(٢).

ما سبق ذكره مثال من القرآن الكريم لتغير الفتوى .

وأما من السنة فكثير أذكر منها :

- ما رواه البخاري من حديث سلمة بن الأكوع ، أن رسول الله ﷺ قال : «من صحى منكم فلا يصبحن بعد ثلاثة ويبقى في بيته منه شيء» فلما كان العام المقبل قالوا : يا رسول الله ، نفعل كما فعلنا في العام الماضي ؟ قال : «كلوا وأطعموا وادخروا ، فإن ذلك العام كان بالناس جهد - أي شدة وأزمة - فأردت أن تعينوا

(١) سورة الأنفال : ٦٦

(٢) ينظر في ذلك «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» ٧٨ : ٨٢

فيها» ^(١) وفعل ذلك سيدنا علي في زمن خلافته ، فقد روى الإمام البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه نهى في زمن خلافته عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث أيام فظن بعض العلماء أن علياً فعل ذلك ليكون التشريع الدائم هو عدم الادخار ، ورد ذلك «الحافظ بن حجر» وقال : إنه رضي الله عنه إنما نهى لأنه رأى بأن بالناس مجاعة في العام الذي نهى فيه .»

فقد لاحظ رضي الله عنه المعنى في نهى النبي ﷺ وأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا. فإذا حصلت مجاعة حرم الادخار ، بل قال بعض العلماء : إذا لم ترتفع المجاعة إلا ببذل لحوم الأضاحي كلها في يومين أو في يوم واحد ، يمتنع الادخار لأكثر من ذلك ، وإذا لم تحصل مجاعة جاز الادخار ، وأصبح الناس أحراراً .. وهكذا غير الرسول ﷺ فتواه من المنع إلى الإباحة.

وأشهر من ذلك : أن النبي ﷺ كان يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة ، وذلك لاختلاف أحوال السائلين ، فهو يجيب كل واحد بما يناسب حاله ، ويعالج قصوره أو نقصيره . ^(٢)

وهذا كله يبين لنا مدى تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال حتى لقد سار على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم جميعاً. ويقول فضيلة الشيخ « عبد الجليل عيسى » : « ما يسوغ فيه الخلاف بشرط عدم التعصب للرأي : فعل أو قول يقول فيه عالم : إنه واجب .. ويقول آخر : هو سنة فقط أو مندوب. أو فعل أو قول : يقول فيه عالم : إنه حرام .. ويقول آخر : إنه مكروه فقط».

فمن النوع الأول :

١ - البسمة في أول الصلاة : فرض عند الشافعية .. سنة عند الحنفية.

(١) رواد البخاري : ك الأضاحي : ب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها : ١٣٧/٦

(٢) يراجع في ذلك : «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» ٨٣/٨٥ . «ما لا يجوز

فيه الخلاف بين المسلمين» ٤٣

٢- التسليم الثانية عند الخروج من الصلاة : واجبة تبطل الصلاة بتركها عند الخطيئة .. سنة عند غيرهم.

ومن النوع الثاني :

- ١- حلق الخنثية : حرام عند الجمهور ، مكروه عند غيرهم.
- ٢- السفر قبل زوال يوم الجمعة إلى مكان لا يدرك فيه الجمعة : حرام عند بعض العلماء .. ومكروه عند آخرين. (١)

والآن : وبعد أن ذكرت نبذة يسيرة عما يحتمل الخلاف ، فإنني أذكر الآن أسس وأسباب الاختلاف ..

وأما عن أسس هذا الاحتمال فهي كما يلي :

١- طبيعة الدين :

فأما طبيعة الدين ، فقد أراد الله تعالى أن يكون في أحكامه المنصوص عليه المسكوت عنه ، وأن يكون في المنصوص عليه المحكمات والمتشابهات ، والقطعيات والظنيات ، والصريح والمؤول ، فتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط وتسلم فيما لا يقبل ذلك إيماناً بالغيب وتصديقاً بالحق.

ولو شاء الله تعالى لجعل الدين كله وجهاً واحداً ، وصيغة واحدة ، لا تحتمل خلافاً ولا تحتاج إلى اجتهاد ، من حاد عنها قيد شعرة فقد كفر ، ولكنه لم يفعل ذلك لتتفق طبيعة الدين مع طبيعة اللغة ، وطبيعة الناس ويوسع الأمر على عباده.

أجل ، لو شاء الله تعالى أن يتفق المسلمون على كل شيء ولا يقع منهم اختلاف في شيء ولو كان فرعاً من الفروع ، أو أصلاً من الأصول غير الضرورية لأنزل كتابه كله نصوصاً محكمات قاطعات الدلالة ، لا تختلف فيها الأفهام ولا تتعدد التفسيرات ، ولكنه جل شأنه أراد أن يكون في كتابه المحكمات - وهن أم الكتاب ومعظمه - وفيه المتشابهات - وهن أقله - وفي ذلك ابتلاء من ناحية وشذذ للعقول

(١) «ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين» ١٤ ، ١٥ .

لتجتهد من ناحية أخرى. يقول الله تعالى : «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (١).

بل إننا نجد - قبل مرحلة الفهم والتفسير - مرحلة القراءة نفسها ، فقد تعددت القراءات في كتاب الله إلى سبع ، بل إلى عشر ، وهي القراءات المتلقاة بالقبول من الأمة ، ولم ير أحد من علماء المسلمين في ذلك أي حرج ، لأنها كلها ثابتة عن رسول الله ﷺ.

ومن ذلك : ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنهما : « سمعت رجلاً قرأ آية وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها ، فأخبرته ، فعرفت في وجهه الكراهة فقال : « كلاهما محسن ، ولا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » » (٢) قال العلامة ابن الوزير معلقاً على هذا الموضوع : « فهذا الخلاف الذي نهى عنه ، وحذر منه الهلاك ، هو : التعادي. فأما الاختلاف بغير تعاد فقد أقرهم عليه ، ألا تراه قال لابن مسعود : « كلاهما محسن » حين أخبره باختلافهما في القراءة؟ ثم حذرهم من الاختلاف .. بعد الحكم باحسانهما في ذلك الاختلاف ، فالاختلاف المحذر منه غير الاختلاف المحسن به منهما ، فالمحذر منه التباعد والتعادي والتكاذب المؤدي إلى فساد ذات البين ، وضعف الإسلام ، وظهور أعداءه على أهله ، والمحسن هو عمل كل أحد بما علم ، مع عدم المعاداة لمخالفه والطعن عليه » قال : « وعلى ذلك درج السلف الصالح من أهل البيت والصحابة والتابعين » (٣).

(١) سورة آل عمران : ٧

(٢) رواد البخاري في صحيحه في كتاب «التفسير» وفي كتاب «فضائل القرآن» . : ٧١٩/٨ .

(٣) يراجع في ذلك : إثبات الحق على الخلق ص ٣٧٥ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ،

كتاب : «الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» د/ يوسف

القرضاوي ص ٦١-٦٣ ط دار الوفاء بالمنصورة.

٢- طبيعة اللغة :

وأما طبيعة اللغة ، فلا شك أن مصدر الدين الذين يرجع إليه ويستدل به ، ويلزم من آمن به ، هو القرآن والسنة ، والقرآن الكريم نصوص قولية لفظية ، وجمهرة السنة كذلك أقوال ونصوص لفظية ، وهذه النصوص القرآنية والنبوية يجري عليها ما يجري على كل نص لغوي عند فهمه وتفسيره ، ففيها اللفظ المشترك الذي يحمل أكثر من معنى ، وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز ، فيها ما يدل بالمنطوق ، وما يدل بالمفهوم ، فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، في كل منه ما دلالة قاطعة ، وما دلالة محتملة ، راجحة أو مرجوحة .

وأضرب لذلك مثالا واحدا ، وذلك في آية الطهارة من سورة المائدة وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.. ﴾ ^(١) كم ورد في هذه الآية من آراء وأقوال للفقهاء اختلفت باختلاف أفهامهم وتعدد تفسيراتهم ، وجلها يتعلق بأمور لغوية . ومنها : - هل الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة - مغسولة وممسوحة - فرض أو لا ؟ وهل الغاية في قوله : (إلى المرفقين) وقوله : (إلى الكعبين) داخلة أو لا ؟ وهل الباء في قوله : (برؤوسكم) تفيد الإلصاق أو التبغيض أو هي زائدة؟ وما تأويل قراءة (وأرجلكم) بالجر؟

وما المراد بقوله تعالى : (أو لامستم النساء) أهو لمس البشر للبشرة أم كناية

عن الجماع كما يقول ابن عباس؟

وما المراد بالصعيد في التيمم؟ أهو التراب أم كل ما كان من جنس الأرض؟

(١) سورة المائدة : آية ٦

وما المراد باليد في قوله: (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) أهي مجرد الكفين أم ما ذكر في الوضوء ، وهو ما يصل إلى المرفقين ؟
وما معنى قوله (فلم تجدوا) ؟ أيدخل فيه فقدان الماء حكما وإن وجد حقيقة ؟
كما إذا كان محتاجا إليه لشرب أو عجن أو طبخ ؟ إلى غير ذلك من الاحتمالات التي أخذ بكل منها إمام من الأئمة ^(١). والأمثلة على هذا النوع من الخلاف كثيرة. وقد أورد بعض العلماء المعاصرين كثيرا منها في مؤلفاتهم. ^(٢)

٣- طبيعة البشر وطبيعة الكون والحياة :

قال أبو حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» : «وبعد : فما دام الناس على فطرة كثيرة وعادات حسنة وقبيحة ، وأمور محمودة ومذمومة ، وملاحظات قريبة وبعيدة فلا بد من الاختلاف في كل ما يختار ويجتنب» وفي مجال الطبيعة تتعدد الألوان وتختلف الأشكال .. فيكون الجمال ، يقول المولى سبحانه «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودَ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ» ^(٣)

إن خشية العلماء هنا لتنبع من استشعار قدرة الله سبحانه وإرادته البادية في هذا الصنع العجيب الجميل ، والذي كان اختلافه وتنوعه سر جماله.

(١) «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفريق المذموم» ص ٤٢ ، ٦٣ مرجع سابق.

(٢) من هؤلاء : فضيلة الشيخ محمد الغزالي في مؤلفه «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» من ص ٥٥-٥٨ ط دار القلم - دمشق . د/ طه جابر فياض في كتابه «أدب الاختلاف في الإسلام» «كتاب الأمة» من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ ، ص ١٠٧ - ١١١.

(٣) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨

وهل يعيب السماء أنها مرعى للسحب المختلفة يسوقها الرعد بسياط من البرق؟ سوف تصبح السماء فراغا لا نهائيا ، إذا خلت من السحب المختلفة الراكضة ، وإذا لم تكن سحب لم تكن أمطار ، ولا أنهار ولا زروع ولا حياة .
وبنفس القوة يمكن القول : بأن الحياة لتبدو فراغا لا نهائياً مملاً إذا خلت من الآراء المشتجرة الباحثة عن الحق . وإذا لم يكن هناك خلاف في وجهات النظر .. لم تكن هناك آمال في مستقبل أفضل .. ولا قضايا أصح .

إن الشجرة تتجرد من أوراقها الجافة .. لتفسح المجال أمام براعم جديدة ، تتحقق بها نضارتها فتورق وتثمر ، وكذلك الإنسان : لا يورق ولا يثمر إلا بالتخلص من آرائه الجافة اليابسة يتخلص منها بعقله هو .. أو بعقول الآخرين .
وفي ذلك قال الشاعر :

الرأي كالليل مُسود جوانبه والليل لا ينجلي إلا بمصباح

فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح^(١)

وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى ، فإن اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله تعالى كذلك نرى ذلك في قوله تعالى .. «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ»^(٢) ومن العبث إذن أيراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء وجعلهم نسخاً مكررة ومحو كل اختلاف بينهم ، فذلك أمر مخالف لفطرة الله التي فطر عليها الناس»^(٣) «وإن إعمار الكون وإزدهار الوجود ، وقيام الحياة لا يتحقق أي منها لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء»^(٤) ومن البديهي أن يكون في الناس : من يميل إلى التشديد ومن يميل إلى التيسير ، من يأخذ

(١) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» د/ محمود عمارة ط دار الطباعة المحمدية ص ٥ .

(٢) سورة الروم : ٢٢

(٣) «الصحوة الإسلامية» مرجع سابق ص ٦٤ .

(٤) «أدب الاختلاف في الإسلام» مرجع سابق ص ٢٦

بظاهر النص ومن يأخذ بفحواه وروحه ، من يسأل عن الخير ، ومن يسأل عن الشر مخافة أن يدركه. ومن ثم يترتب على ذلك - أي الاختلاف في الصفات - اختلافهم في الحكم على الأشياء والمواقف والأعمال ، يظهر ذلك في مجال الفقه وفي مجال السياسة. وفي مجالات السلوك اليومي والعادي للناس.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ، ما عُرِف واستفاض من كل من الصحابييين الجليليين : عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما جميعا ، فقد كان ابن عمر يبعد الأطفال عنه حتى لا يسيل شيء من لعابهم عليه تحرزا مما يشته به نجاسته ، وابن عباس يضمهم إليه ويقول : إنما هم رياحين نشتمها. وكان ابن عمر يغسل باطن عينيه في الوضوء. ويرى أن لمس المرأة ينقض الوضوء وابن عباس لا يرى ذلك. وموقفهما كذلك من الحجر الأسود والمزاحمة عليه ، فقد روى سعيد بن منصور عن القاسم بن محمد قال : رأيت ابن عمر يزاحم على الركن حتى يدمى (أي يجرح ويسيل منه الدم) وفي رواية أنه قيل له في ذلك ، فقال : هوت الأفئدة إليه فأريد أن يكون فؤادي معهم. وفي مقابل هذا روى الفاكهي من عدة طرق عن ابن عباس كراهة المزاحمة ، وقال : لا يؤذى ولا يؤذى^(١)

وما حدث بين الصديق أبي بكر والفاروق عمر بعد غزوة بدر الكبرى في شأن الأسرى بعد مشاورة الرسول ﷺ لهما ليس عن الأذهان ببعيد ، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه - في هذا الموقف يمثل الرفق والرحمة - وعمر رضي الله عنه - يمثل القوة والشدة.

أجل : « إن طبائع الناس وأمزجتها تختلف من شخص لآخر ، فتختلف لذلك مواقفها وحتى بين الأخوين الشقيقين ، وأبرز مثال لذلك من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام ، ومن الصحابة الحسن والحسين رضي الله عنهما^(٢) ، وقد حكى القرآن الكريم ما حدث بين موسى عليه السلام وأخيه هارون ، حين اختلفا إلى حد أن

(١) يراجع «الصحوة الإسلامية» د. القرضاوي. ص ٦٥ . ٦٦.

(٢) المرجع السابق ص ٦٩

أخذ موسى بلحية أخيه ، ولامه أشد اللوم بعد عبادة بني اسرائيل العجل السامري ... جاء ذلك في قوله تعالى : «قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا (٩٢) أَلَا تَتَّبِعُن أَفْعَصَيْت أُمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنِ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» ^(١) وفي سورة أخرى ، قال له : «فَلَا تَشْتُمْ بِیِ الْأَعْدَاءِ» ^(٢)

٤- أسباب تعود إلى رواية السنن :

في هذا السبب من أسباب الاختلاف كتب الإمام «ابن تيمية» رسالة جليّة وأسمّاها «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» كان فيها - كما يقول فضيلة الشيخ : محمد الغزالي : «قمة من قمم العلم والنصفة. صور وجهات النظر المتباينة بأمانة وإحاطة دون أن يكون لرائيه الخاص أثر في تشويه رأي معارض فقد أجمل أسباب الخلاف وحدد نتائجه في حياد نزيه» ^(٣)

ومنها ما يلي :

أ- ربما لا يبلغ الحديث الفقيه المجتهد ، فإن الأحاديث كثيرة والإحاطة بها متعذرة. فيقضى أو يفتى بمقتضى ظاهر آية أو حديث آخر أو بقياس على مسألة سبق فيها من رسول الله ﷺ قضاء. وقد كان أبو بكر رضي الله عنه لا يعلم السنة في ميّزات الجدة حتى أخبره من يرويهها. وكان سيدنا عمر رضي الله عنه لا يعلم سنة الاستئذان حتى اطلع عليها من أبي موسى الأشعري.

ب- قد يبلغ الحديث الفقيه ، ولكنه يرفض سنده لعلل قاذحة فيه ، وربما بلغ غيره بستند أجود فيأخذ به ، والخلاف بين العلماء في تقويم الرجال ، وبالتالي قبول المتن أمر شائع.

(١) سورة طه : ٩٢ - ٩٤

(٢) سورة الأعراف : ١٥٠

(٣) «راجع في ذلك «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام : ابن تيمية ط ٢. ط : المطبعة

السلفية - ومكتبها القاهرة . «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» مرجع سابق ص ٥٨.

ج- من الفقهاء من يشترط في قبول خبر الواحد شروطاً لا يوافقها غيره عليها ، مثل : اشتراط بعضهم عرض الحديث على كتاب الله وسنة رسوله ، أو اشتراط أن يكون المحدث فقيهاً ، فإن جودة الحفظ لا تغني عن حدة الدهن ، أو اشتراطه في كل أمر شأنه العموم أن يجئ من طرق كثيرة فإن انفراد واحد وحسب بحديث في قضية عامة مشهورة قد يثير التهمة.

د- اعتقاد ضعف الحديث لفكرة خاصة. فإن كثيراً من الحجازيين مثلاً يرون ألا يحتجوا بحديث رواه عراقيون أو شاميون إن لم يكن لهذا الحديث أصل من الحجاز ، ومع أن الحجاز هو البيئة الأولى للسنن الأولى فإن هذا الاعتقاد بالأسانيد الحجازية وحدها رأي خاص.

هـ- أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه. وذلك كنسيان عمر لحديث التميم من الجنابة حتى ذكره به عمار بن ياسر ، وكأن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يفهم من .. القرآن إلا أن التميم يرفع الحدث الأصغر وحده.

و- اعتقاد الفقيه أن لا دلالة في الحديث على ما يراد. من ذلك مثلاً حديث : «إنما الأعمال بالنيات»^(١). هل المقصود منها كمالها أم صحتها؟. وحديث : «لا يدخل الجنة نمام»^(٢) هل يمنع دخوله على التأبيد ، أم لا يدخلها مع الأفواج الأولى ، ويقضي في جهنم ربحاً من الزمن؟ فإذا تجاوزنا هذه القضايا المفردة إلى قضايا أعم وأهم وجدنا الرأي يختلف اختلافاً بعيد المدى . فإن ابن تيمية - رحمه الله - تحدث عن القتال الذي يدور بين المسلمين والكفار. فتساءل : ما سببه؟ هل العدوان سبب المقاتلة أم مجرد الكفر؟ الأول : قول الجمهور والثاني : قول الإمام الشافعي وبعض أصحاب الإمام أحمد.

(١) رواد البخاري : ك : بدء الوحي ، ب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله : ١/٥

(٢) رواد البخاري : ك : الأدب : ب : ما يكره من النيمة : ١٠ / ١٦٠ ورواد مسلم : ك

الإيمان : غلط تحريم النيمة : ١٧٠/٤

وقد شرح الإمام «ابن تيمية» في رسالته الآثار السينة المترتبة على القول الثاني والتي ترجح رفضه و ثم قال مؤيدا الرأي الأول : «وقول الجمهور هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ^(١) فقولته تعالى ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال

ثم قال سبحانه ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ والعداوة مجاوزة الحد ، فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان. ويدل عليه قوله تعالى بعد هذا : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ ^(٢) فدل على أنه لا يجوز الزيادة ثم قال : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ^(٣) والفتنة أن يفتن المسلم عن دينه كما كان المشركون يفعلون ، فلما كانت لهم سلطة حينئذ وجب قتالهم حتى لا يفتنوا أحداً ، وهذا يتحقق بعجزهم عن القتال.

ولم يقل جل شأنه : « وقاتلوهم حتى يسلموا الخ »

ثم قال : (وادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة .. وبعد أن حكى قولهم قال : إن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل ، وليس في القرآن ما يناقض هذه الآية ، بل فيه ما يوافقها ، فأين النسخ؟) ^(٤)

ويأخذ الشيخ محمد الغزالي كلام ابن تيمية هذا فيقول : « وإني لأستغرب من بعض المفسرين ولوعهم بذكر النسخ ، حتى إن السيوطي - غفر الله له - حكم بنسخ عدة منات من الآيات متعلقاً بآراء ومرويات تافهة. من ذلك ما حكاه من نسخ قوله

(١) سورة البقرة : ١٩٠

(٢) سورة البقرة : ١٩١

(٣) سورة الأنفال : ٣٩

(٤) يراجع في ذلك «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» من ص ٦-٩. «دستور الوحدة الثقافية

تعالى : « لا إكراه في الدين » ^(١) ويورد كلام ابن تيمية في التعليق على ما قاله السيوطي «وجمهور السلف والخلف على أنها ليست مخصوصة ولا منسوخة بل يقولون : إنا لا نكره أحداً على الإسلام وإنما نقاتل من يحاربنا» ^(٢)

ز - وقد تتساوى الدلالات المختلفة في إفادة معان كثيرة ، ويصعب ترجيح وجهة على أخرى ، قال ابن تيمية : « مثل معارضة العام بخاص ، أو المطلق بمقيد ، أو الأمر المطلق .. بما ينفي الوجوب أو الحقيقة بما يدل على المجاز ، إلى أنواع المعارضات الأخرى. وهو باب واسع فإن تعارض الدلالات وترجيح بعضها على بعض بحر ضخم» ^(٣)

قال الشيخ محمد الغزالي : « وينضم إلى هذا أن تختلف المرويات اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، فقد وردت كلمات الأذان ببضع عشرة صيغة ، وترجع لدى كل فقيه سند ، أو سبق إلى علمه ، وظاهر أن رسول الله ﷺ أقرها كلها ومثل ذلك كثير ، ومن ذلك ما كان يفعله السلف في الصلاة على الجنازة ، فمنهم من كان يصلي على الجنازة بقراءة ، ومنهم من كان يصلي عليها بغير قراءة ، وتارة يصلون فيها جهرًا وتارة سرًا ، وتارة برفع اليدين في المواطن الثلاثة وتارة بغير رفع ، وتارة يسلمون تسليمتين ، وتارة تسليمًا واحدة ... » ^(٤) « كل هذا ثابت عن الصحابة ، كما ثبت عنهم أن فيهم من يرجع في الأذان وفيهم من لم يرجع فيه ، ومنهم من يوتر الإقامة وفيهم من كان يشفعها. وكلاهما ثابت عن النبي ﷺ فهذه الأمور وإن كان أحدهما أرجح من الآخر فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزاً ، وقد يكون فعل المرجوح أولى للمصلحة كما يكون ترك الراجح أولى أحياناً لمصلحة أهم » ^(٥)

(١) سورة البقرة : ٢٥٦

(٢) نقلاً عن : دستور الوحدة الثقافية .. ص ٦٢ بتصرف يسير.

(٣) نقلاً عن : دستور الوحدة الثقافية .. ص ٦٢ بتصرف يسير.

(٤) «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ص ١٠

(٥) يراجع من «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ص ٦٢ ، ٦٣ بتصرف.

ج- ومن ذلك أيضاً : قد يكون الفقيه - مع جوده وحفظه واستنتاجه - قد أخطأ في تقرير المقدمات التي انتهت بالنتيجة التي رآها ، وذلك مثل من يقول : لا أعلم أحداً أجاز شهادة العبد! مع أن قبول شهادته محفوظه عن علي وأنس وشريح وغيرهم.

ويقول آخر : لا أعلم أحداً أوجب الصلاة على النبي ﷺ في أثناء الصلاة - وإيجابها محفوظة عن أبي جعفر الباقر. (١)

(ط) وقد يصح الحديث عند المجتهد ولكنه يعتقد أنه معارض بما هو أصح منه أو أقوى. فيرجح الأقوى ، أولاً يتضح له أقوى الدليلين ، فيتوقف عن الأخذ بكل منهما ، حتى يظهر له مرجح ، وقد يعثر مجتهد على ناسخ للحديث أو مخصص لعامة ، أو مقيد لمطلقة ولا يطلع مجتهد آخر على شيء من ذلك ، فتختلف مذاهبهما. (٢)

٥- أسباب تعود إلى القواعد الأصولية وضوابط الاستنباط :

علم أصول الفقه هو : « معرفة أدلة الفقه على سبيل الإجمال وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد » فهذا العلم عبارة عن : مجموع القواعد والضوابط التي وضعها المجتهدون لضبط عملية الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية الفرعية من الأدلة التفصيلية فيحدد المجتهدون في مناهجهم الأصولية الأدلة التي تستقي منها الأحكام ، ويستدلون لحجية كل منها ،

ويبينون جميع العوارض الذاتية لتلك الأدلة لتتضح طرائق الاستفادة الأحكام منها ، ويحددون طرق الاستفادة الحكم الشرعي من كل دليل من تلك الأدلة والخطوات التي يسلكونها منذ البداية حتى الوصول إلى الحكم الشرعي ، وهذه القواعد والضوابط اختلفت مذاهب المجتهدين فيها : فنجم عن الاختلاف فيها اختلاف في

(١) المرجع السابق ص ٦٣

(٢) المرجع السابق ص ٦٣

المذاهب الفقهية التي يذهب كل منهم إليها ، فبعض الأئمة يذهب إلى أن فتوى الصحابي إذا اشتهرت ولم يكن لها مخالف - من الصحابة أنفسهم - حجة لأن الثقة بعدالة الصحابة تشعر بأن الصحابي ما أفتى بما أفتى به إلا بناء على دليل ، أو فهم في دليل ، أو سماع من رسول الله ﷺ لم يشتهر ولم يصل إلينا. وبعضهم لا يرى في مذهب الصحابي هذا الرأي ، وإنما يعتبر الحجة فيما يرويه الصحابي عن رسول الله ﷺ.

ومن المجتهدين من يأخذ بـ « المصالح المرسلة » ^(١) ، فإذا أدرك المجتهد في تلك الأمور ما يحقق مصلحة قال بمقتضى تلك المصلحة باعتبار أن الشارع ما شرع الأحكام إلا لتحقيق مصالح العباد. وهناك من لا يأخذ بهذا ، ولا يعتبرون ذلك أمراً لا تستفاد منه الأحكام فتختلف أقوالهم في الوقائع بناء على ذلك.

كما أن هناك أموراً أخرى من هذا النوع - اختلف المجتهدون فيها وتعرف في كتب أصول الفقه : بـ «الأدلة المختلف فيها» كـ «سد الذرائع» و«الاستحسان» و «الاستصحاب» و«الأخذ بالأحوط» و «الأخذ بالأخف» و «الأخذ بالأثقل» و «العرف» و «العادة» وغيرها ^(٢)

تلك هي أهم وأبرز الأسباب التي ترجع إليها الاختلافات الفقهية.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره ، فإن الاختلاف فيه رحمة بالأمة وتوسعة عليها ، وفي ذلك نجد قول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حينما يتحدث عن السعة والرحمة في اختلاف الصحابة من قبل : «ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة» يعني : أنهم باختلافهم أتاحوا لنا فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم. وثمة عنصر آخر أضيفه إلى كونه رحمة

(١) المصالح المرسلة : هي تلك الأمور التي لم يوجد في الشرع ما يدل على اعتبارها بذاتها .

كما لم يوجد فيه ما يدل على إلغائها بذاتها ، فهي مرسلة مطلقة عن الإلغاء والاعتبار - يراجع «أدب الاختلاف» ص ١١٥ .

(٢) ينظر في ذلك «أدب الاختلاف في الإسلام» ١١٤ - ١١٥

، هو كذلك ثروة كبيرة ، فإن اختلاف الآراء الاجتهادية يثري به الفقه ، وينمو ويتسع نظرا لأن كل رأي يستند إلى أدلة واعتبارات شرعية أفرزتها عقول كبيرة ، تجتهد وتستنبط ، وتقيس وتستحسن ، وتوزن وترجح ، وتوصل الأصول ، وتقعد القواعد وتفرع عليها الفروع والمسائل .. وبهذا التعدد المختلف المشارب ، المتنوع المسالك ، تتسع الثروة الفقهية التشريعية^(١) .. وتختلف ألوانها ، من مدرسة الحديث والأثر ، إلى مدرسة الرأي والنظر إلى مدرسة الوقوف عند الظواهر ، إلى مدرسة الاعتدال أو الوسط التي تأخذ من كل مدرسة أحسن ما لديها ، متجنبنة نقاط الضعف في كل مدرسة حسبما يهدي إليه اجتهادها ، غير متحيزة لهذه أو تلك ، ولا لهذا الإمام أو ذاك .. وفي النهاية يصبح من وراء هذه المدارس والمشارب والمذاهب والأقوال كنوز لا يقادر قدرها ، وثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العلم والبحث^(٢).

- هذا كله إذا كان الاختلاف لا يؤدي إلى تفرق الكلمة وتشتت الصف الإسلامي. وتعادي الأمة وتنازع الطوائف ، وإلا كان الاختلاف مذموماً غير محمود - وهذا ما نبه القرآن إليه وحذر منه جماعة المؤمنين في مثل قوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾^(٣)

وفي هذا السياق نفسه يحذر من التفرق كما تفرق الذين قبلنا فيصينا ما أصابهم ، : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤)

(١) الصحوة الإسلامية - د/ القرضاوي ص ٧٨ بتصرف يسير

(٢) «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» ص ٧٩

(٣) سورة آل عمران : ١٠٣

(٤) سورة آل عمران : ١٠٥

المبحث الثالث : الحوار العلمي وضوابطه المنطقية والأخلاقية

جاء في لسان العرب (لابن منظور) : الحوار مشتق من الحور وهو (الرجوع على الشيء ، وإلى الشيء) حار حوراً إلى الشيء : رجع عنه وإليه. وأحار عليه جوابه : أي رده. وهم يتحاورون : أي يتراجعون في الكلام. والمحاورة هي : المجاورة. والتحاور : التجاوب ^(١) فهو بذلك يعني : «عملية تتم بين اثنين فأكثر : يطرح أحدهم شيئاً ، فيتمثله الآخر ، يجيب عنه ، فيحدث تجاوب ، فيولد عند كل منهما مراجعة لما طرح ، وينتهي الأمر بالاتفاق ، أو إغناء الفكرة بمزيد من الوضوح .. عن طريق النظرة الشاملة.

وبالتأمل في مادة «الحوار» نجده خالياً من العنف والمغالبة ، وهو أقرب إلى المناظرة إن لم يكن ^(٢) وهذا يسوقنا إلى أن نلقي نظرة على معنى هذه الكلمة «مناظرة» ولها عدة تعريفات :

أ- «فهي إما أن تكون مشتقة من المناظرة بمعنى المماثلة.

ب- ربما رجعت إلى معنى «المقابلة» على معنى أن يكون المتناظران متقابلين.

ج- وقد تكون من النظر بمعنى التبصر والتفهم لوجهة نظر الخصم.

د- وربما كانت مأخوذة من الانتظار والتمهل ^(٣).

قال ابن منظور : «والمناظرة : أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه. والتناظر التواضع في الأمر» ^(٤)

فهي بذلك وسيلة من الوسائل الصحيحة لتوصيل المعرفة . بطريقة علمية مهذبة.

(١) لسان العرب لابن منظور ١٠٤٢/٢ ط دار المعارف. مادة (حور).

(٢) من أجل حوار لا يفسد للود قضية - مرجع سابق ص ٢٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٦

(٤) لسان العرب لابن منظور ٤٤٦٦/٦ مادة (نظر)

وأما كلمة «علمي» :

فيقول ابن منظور : «العلم نقيض الجهل. ورجل عالم وعليم من قوم علماء». (١)

وبذلك يتضح أن معنى « حوار علمي » أي مصبوغ بصبغة علمية. تبعد عن حوار الجهل والجهلاء ومن ثم لا يكون حوار علمي إلا إذا تحلى بضوابط منطقية وأخلاقية ، وإلا فهو أبعد ما يكون عن حوار العلم والعلماء.

وكلمة «ضوابط» معناها كما يقول ابن منظور : «من الضبط أي : لزوم الشيء وحبسه ، وقال الليث : الضبط : لزوم الشيء لا يفارقه في كل شيء ، وضبط الشيء : حفظه بالحزم» (٢)

وهكذا فالكلمة واضحة الدلالة على مفهومها ومعناها أي ما يلزم الحوار ويحفظه ولا يفارقه.

الضوابط المنطقية والأخلاقية للحوار :

مما لا شك فيه أن البحث عن الحقيقة والوصول إلى الصواب هو الهدف الرئيسي والحقيقي للمحاورة العلمية ، فليس الأمر انتصاراً لرأي أو تعصباً لهوى ، ومن ثم كانت هذه الضوابط التي تميز الحوار العلمي عن غيره ، ويتحقق معه الغاية المرجوة والهدف المنشود.

أولاً : الضوابط المنطقية :

هذه الضوابط وضعها علماؤنا ليظل الحوار محققاً أهدافه ما التزمنا بهذه الضوابط ومنها ما يلي :

١ - أن يعلم كل من المتحاورين أنها معركة - إن جاز التعبير - تُدار لحساب الحق لا لحساب شخص ما.

(١) السابق ٣٠٨٣/٤ مادة (علم).

(٢) لسان العرب ٢٥٤٩/٤ مادة (ضبط)

٢- أن يكون هناك موضوع للحوار . وقد وضح ذلك من محاوره موسى

عليه السلام لفرعون . فقد كانت القضية هي : طغيان فرعون
والوسيلة هي : القول اللين بعيداً عن التجريح ، والشرط هو عدم
الخوف .. فراراً من المجاملة على حساب الحق المأمول .

٣- الإحاطة التامة بأطراف الموضوع الذي يتم التفاوض فيه ، وفي ذلك نرى
الإمام أبا حامد الغزالي يشترط على من يريد نقد علم من العلوم أن
يتبحر فيه .. بل ويزيد على أعلم علماء هذا الفن . ليتمكن من إدارة
الحوار على قاعدة راسخة من العلم .

قال : « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ،
حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه » . وقد بادر الإمام الغزالي
بتطبيق هذا المبدأ على نفسه حين يعرض لنقد الفلسفة : فقد تبحر فيها وهضم
قضاياها إلى حد تبسيط كتب الفلاسفة حتى يتاح فهمها لأتصاف المتعلمين ، مما جعله
عرضة للنقد من جانب بعض العلماء لأنه بمسلكه هذا كان دعاية للفلسفة وإغراءً بها
، وإن لم يقصد ذلك ، لكنه يقول :

« قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان » .

٤- الوقوف بحذر إزاء كل رأي يدور حول الموضوع ولا بد من تمحيص
قبل أن يسبق المزاج الشخصي فيتقبله للوهلة الأولى ثم يتبين زيفه بعد
ذلك .

٥- ألا يمسك أحدهما بزمam الحديث وحده ، بل لا بد من ترده بينهما ، ثم
إن الذي يتردد كلام ، والكلام هو اللفظ المفيد لا اللفظ الجارح .

٦- التزام الأدلة .. الأصولية أو العقلية ، وتقديمها مؤيدة بالقرآن أو
الحديث ، وألا يقدم دليلاً ترديداً لأصل الدعوى ، وألا يطعن إلا على
الأسس التي يجري عليها التفاوض وألا يكون في بعض كلامه ما ينقض
الآخر .

٧- افتراض صحة الجانب الآخر أو مجاراته وصولاً إلى الحقيقة^(١) ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(٢) ، أو مجاراته وصولاً إلى تبكيته وإلزامه ، ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾^(٣)

٨- لا بد أن تضع الحرب أوزارها في وقت ما عند ظهور الحق ، لأنها لا تكون سجلاً إلا إذا كانت بين مبطلين يدافع فيها الواحد عن نفسه لا عن رأيه.

٩- إن مجرد ظهور الحق يسعد الطرفين معاً ، فما يهم كلا منهما بالدرجة الأولى : ظهور الحق على يد أي واحد ، وليس هو إظهاره على يده وحده ، لأن ذلك رغم أنه يفيد الحق إلا أنه على أي حال لون من التعصب ، ومن ثم فلا بد من التسليم بالمسلمات وقبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة.^(٤)

١٠- الرثاء للطرف الآخر وعدم إظهار الشماتة فيه.^(٥)

تلك أهم الضوابط المنطقية للحوار العلمي.

(١) يراجع في هذا كله : «من أجل حوار لا يفسد للود قضية د/ محمود عمارة ص ٣٠ ، ٤١ ،

٤٢ - ٤٤ . و «أدب الحوار والمناظرة» المستشار الدكتور/ علي جريشة ط دار الوفاء

بالمنصورة ص ٦٧ ، ٦٨

(٢) سبأ : ٢٥

(٣) سورة إبراهيم : ١١

(٤) ينظر «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» ص ٣٠ ، «أدب الحوار والمناظرة» ص ٦٨

بتصرف يسير.

(٥) مفاهيم تربوية أ/ محمد عبد الله الخطيب ١٠٦/١ ط : دار المنار الحديثة.

ثانياً : الضوابط الأخلاقية :

١ - الإخلاص لله والتجرد من الأهواء :

إن الإخلاص لله وحده ، والتجرد للحق ، ومجاهدة النفس حتى تتحرر من اتباع هواها أو أهواء غيرها ، الأمر الأول الذي يجب على كل من المتحاورين أن يتحلى به فكثيراً ما تكون الخلافات بين الأفراد والفئات ، ظاهرها أنه خلاف على مسائل في العلم ، أو قضايا في الفكر ، وباطنها حب الذات واتباع الهوى الذي يعمي ويصم ، ويضل عن سبيل الله ، نعم كثيراً ما يكون الخلاف في حقيقة الأمر من أجل أن يكون زيد زعيماً أو عمرو رئيساً أو بكر قائداً ، ويظن هذا أو ذاك أنه خلاف على المبادئ والمفاهيم ، وهو خلاف على حب الظهور أو الجاه أو التصدر ، وهو الذي جاء به الحديث النبوي الشريف : «ما ذنبان جاتعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(١) والمراد بالشرف هنا : الجاه والمنصب ، والمعنى : إن الحرص على المال والجاه أكثر إفساداً للدين من إفساد الذنبيين للغنم.

ولقد حرصت التربية الإسلامية ، القرآنية والنبوية ، على تكوين الإنسان المؤمن ، الذي يجعل غايته رضا الخالق ، لا ثناء الخلق ، وسعادة الآخرة ، لا منفعة الدنيا ، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(٢)

وحذرت هذه التربية من الإنسان الذي تكون الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ، فهو يعمل للجاه والشهرة ، أو للمصلحة الذاتية ، أو لنزعة عصبية ظاهرة أو خفية^(٣)....

(١) رواه أحمد في مسنده : ٣١٩/١٢

(٢) سورة النحل : ٩٦

(٣) د/ القرضاوي ص ١٩٤

ولهذا صح في الحديث أن أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة هم أهل الرياء والكذب على الله ، الذين يزينون للناس أنهم يعملون لله تعالى ، وهم لا يعملون إلا لذواتهم ، وشهوات أنفسهم وإن كان فيهم العالم المعلم ، والمنفق الباذل ، والمجاهد المقاتل.^(١)

ومن ذلك ما رواه جابر رضي الله عنه قال : « لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا لتحيزوا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار ».^(٢)

ومن هنا نوه الحديث الشريف بأولئك الجنود المجهولين الذين يذبيون حبات قلوبهم ، وينفقون أغلى أيام أعمارهم في نصرة دينهم و وطاعة ربهم ، دون أن تُسلط عليهم الأضواء ، أو يشار إليهم بالبنان.

روى الحاكم وغيره ، عن زيد بن أسلم عن أبيه : « أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكي ، فقال ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : « اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الاتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة ».^(٣)

« وكمن من أناس يدافعون عن بعض الاتجاهات الفكرية ، والعقدية يبالغون في الحماس لها ، وشدة الإنكار على من خالفها ، ويستخدمون أقسى العبارات في الهجوم وهم هواة ، أو محترفون جدد. ويتجلى ذلك ويبرز أوضح ما يكون البروز عندما يوجد من

(١) «الصحوة الإسلامية» د/ القرضاوي ص ١٩٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به : ٩٣/١ ط : دار الريان للتراث.

(٣) الحاكم في مستدركه ، كتاب الإيمان ٤/١ وقال : صحيح ولا علة له ، ووافقه الذهبي وأيدد

المنذري في الترغيب والترهيب. ويراجع «الصحوة الإسلامية» ص ١٩٥.

الأعين والآذان من يرجى أن ينقل عنه صولاته وجولاته في الكر والفر ، والهجوم والدفاع»^(١).

ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول : « ما باحثت أحداً فاخترت أن يكون الحق يجري على لسانه ليس إلا »^(٢)

فينبغي الإخلاص في المحاورات والمناقشات الفكرية بعيداً عن التعصب المذموم لحزب أو جماعة أو لإقليم أو لمدينة ، وأن ينصف الجميع الحق أينما وجد ، وأن يخلصوا دينهم لله ، حتى يخلصهم الله لدينه : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (٣) ومما يتم الإخلاص لله والتجرد للحق أن يتحرر كل طرف منهما من التعصب لآراء الأشخاص وأقوال المذاهب ، وانتحالات الطوائف.

على معنى : أنه لا يقيد نفسه إلا بالدليل ، فإن لاح له الدليل بادر بالانقياد له ، وإن كان ذلك على خلاف المذهب الذي يعتنقه ، أو قول الإمام الذي يعظمه أو الطائفة التي ينتسب إليها، فالحق أحق أن يتبع^(٤) ..

٢- التواضع :

إن من الضوابط الأخلاقية للحوار العلمي الهادف أن يتواضع المتحاور لنظيره تواضعاً يستصغر به نفسه وجهده ، بحيث يقف من خصمه موقف الشريف لا موقف التحدي .. موقف المسترشد المستعرض بنفسه لمساقط الغيث ، وعلى جسر من هذا التواضع الذي يفتح الطريق أمام الرأي الآخر تنجلي معركة الرأي عن فوائد كثيرة. وفي بيان هذا التواضع نقرأ ما قاله أبو الحسن الباهلي - من أئمة الكلام - : «كنت في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب البحر».

(١) الصحوة الإسلامية : ١٩٦

(٢) من أجل حوار لا يفسد للود قضية ص ٥٨

(٣) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

(٤) الصحوة الإسلامية ص ١٩٩

وقول أبي بكر الباقلائي - وهو من لقب بلسان الأمة - وقد قيل له : «كلامك أفضل من كلام أبي الحسن الأشعري وأزين من كلامه أيضاً» قال : «إن أفضل أحوالي أن أفهم كلام أبي الحسن رحمه الله». ولم يغتر الرجل بثقة أصحابه و لكنه فتح أبصارهم على الحق كما يحس به هو ، لا كما تتحدث به عواطفهم المشبوبة ! إن عواطف الاتباع في غمرة الإعجاب بالزعيم قد تتحول إلى فتنة تآكل الأخضر واليابس ، ولكن الرجل أنقذهم وأنقذ نفسه منها.

نعم إن المجال هنا مجال سباق من أجل الحقيقة وتثبيت أركانها ، فلا مجال للتكبر الذي هو سمة التنافس على شئون الدنيا ، بالإضافة إلى أن جهد الباحث أو المحاور الذي يصل به إلى الحق في الموضوع إنما هو بتوفيق الله تعالى.

وها هو الإمام الرازي ، وهو من هو علماً غزيراً وطول باع في شتى المعارف والعلوم يبين ما يجب أن يكون عليه العالم ومن ثم المناظر أو المحاور - من تواضع إزاء بحر العلوم الذي لا يصل إلى ساحله متبحر مهما خاض وسبح :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعي العالمين ضلال

ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال (١)

إنه تواضع جم وأدب في طلب العلم رفيع. ما أوجنا إلى التحلي به وإلى التجمل بهذا الخلق العظيم... وفي ذلك يقول العلامة «الزمخشري» معقياً على حديث الهدهد مع نبي الله سليمان «ألهم الله الهدهد فكافح» (٢) سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من : فضل النبوة ، والحكمة ، والعلوم الجمة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة وذلك : ابتلاء له في علمه ، وتنبيهها له أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما

(١) ينظر في ذلك «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» د/ محمود عمارة ٨٦-٨

(٢) كافح : أي واجه

لم يحط به لتتأقفر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه : ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة»^(١).

وهكذا فإن هذا أدب خلقي عظيم ينبغي أن يتحلى به طالبوا العلم والعلماء.

٣- إنصاف الخصم :

ففي كيان الإنسان داعية الحسد ، مع حب العلو في الأرض بغير الحق إلى جانب ميله إلى تأكيد ذاته دائماً ، ولو على أشلاء الآخرين ، أما الذي يشهد لغيره بالفضل منصفاً له و فقد ارتفع فوق هذه الهوائف النفسية ولاء منه للحق ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن لحظة المنافسة تحجب الرؤية تبين لنا مقدار صفاء نفس من هذا النوع الشاهد بالحق في وقت تضل فيه النفس وتنسى ، على أن ذلك تغليب لمصلحة الأمة على مصلحته الشخصية الممثلة في كسب معركة عن طريق المبارزات الكلامية. ومن هنا يكون تقدير الناس لهؤلاء المنصفين ، وهي مرتبة أعلى فوق الاعتراف بالخطأ ، من أجل ذلك نرى الناس يكبرون المعترف بالخطأ أشد من إكبارهم لمن كسب الجولة ، لأن المقر المادح خصمه منتصر على نوازع العناد والأناية في نفسه ، وهو انتصار أعمق من مجرد الفوز في معركة فكرية.. إن المنصف منتصر في معركة الأخلاق ، والغالب منتصر في معركة الفكر ، وموقف الأول أولى بالتقدير على قدر ما تحمله وعاناه.

ومن أجل وأروع النماذج في ذلك : ما اشتهر بين الناس أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال يوماً : « لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال » فقال امرأة : ما ذاك لك. قال : ولم ؟ قالت : لأن الله عز وجل يقول : «... وَآتَيْنَهُمْ إِحْذَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً... »^(٢). فقال سيدنا عمر رضي الله عنه : امرأة أصابت ، ورجل أخطأ.

(١) «الكشاف» للإمام الزمخشري ١٣٩/٣ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر»

(٢) سورة النساء: ٢٠

لقد رجع رضي الله عنه إلى الحق ، ورجع فور مواجهته بالآية الكريمة ، ولو كانت على لسان المرأة ، ومن فوق المنبر العالي ، على الملأ ، وهو الرجل الأول في الدولة.

ومن ثم فإن المنصف لا ينازل خصمه المعاند بسلاحه ، ولكنه يظل جديراً بالاحترام ما دام متمسكاً بأداب الإسلام الجامع على الحق ، المانع من الشقاق ، المؤدي إلى الوفاق. ^(١)

بمثل هذا الخلق يعلو الحق ويظهر في الآفاق

٤- الامتناع عن الإيذاء والسخرية أو البذاءة أو الفحش ، ويجمع ذلك كله «ترك الطعن والتجريح» وقد علمنا هذا الأدب الرسول ﷺ حين قال : «ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذيء» ^(٢) فمن أسباب التواصل والتقارب : ترك الطعن والتجريح للطرف الآخر ، والتماس العذر له ، وإن كان مخطئاً في ظن صاحبه. ^(٣)

وذلك لأنه قد يكون المصيب ونظيره المخطئ ، إذ لا يقين في الاجتهادات بصواب أحد القولين ، كل ما يكون في هذا المجال هو الترجيح ، والترجيح لا يعني القطع واليقين.

كما أن المخطئ في هذه القضايا لا يجوز الطعن عليه بحال ، لأنه معذور في خطئه ، بل مأجور عليه بنص الحديث النبوي الشريف. فكيف يجرح أو يطعن عليه في أمر هو مأجور عليه من الله تعالى.

(١) يراجع في ذلك «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» مرجع سابق ص ٨٩-٩٠

(٢) الترمذي في «البر والصلة» ١٤٩/٨

(٣) أدب الحوار والمناظرة د/ علي جريشة ص ٦٧ ، د/ القرضاوي في كتاب «الصحوة الإسلامية»

ولقد كان ذلك هو نهج السلف رضوان الله عليهم في اختلافهم في الاجتهاد ، فلا يجرح بعضهم بعضاً بل أثنى بعضهم على بعض برغم ما اختلفوا فيه ^(١). فهذا الإمام الشافعي يقول عن الإمام مالك : مالك بن أنس معلمي ، وعنه أخذت العلم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وهذا الإمام مالك يقول في أبي حنيفة : «لو جاء إلى أساطينكم - أي أعمدة البيوت - فقائسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب» ^(٢). إلى غير ذلك كثير مما سيأتي بيانه - إن شاء الله - في محله.

ومن المؤسف حقاً أن نرى بين المتحاورين من يشهر سيف الذم والتجريح للآخر ، متهماً إياه بقلّة الدين أو باتباع الهوى أو بالابتداع والاحراف ، أو بالنفاق وربما بالكفر. وكثير من هؤلاء لا يقتصرون في الحكم على الظواهر ، بل يتهمون النيات والسرائر ، التي لا يعلم حقيقة ما فيها إلا الله سبحانه ، كأنما شقوا عن قلوب العباد واطلعوا على دخالها ، ولم يكد يسلم من السنة هؤلاء أحد من القدامى أو المحدثين ، أو المعاصرين ، ممن لا يقول بقولهم في قضايا معينة ، حتى وجدنا من يسب بعض الأئمة الأربعة ، في الفقه ومن يسب بعض أئمة السلوك والزهد مع أنهم عدول بتعديل النبي ﷺ لهم حين قال : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له» ^(٣).

ومن القواعد المسلمة : أن الخطأ مرفوع عن هذه الأمة كالنسيان ، وهو ما علمه الله للمؤمنين أن يدعوا به في ختام سورة البقرة وهو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ ^(٤). وأكد الحديث النبوي هذه الآية في قوله ﷺ : «إن الله تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ^(٥).

(١) «الصحوة الإسلامية» ص ٢٢٩

(٢) «مفاهيم تربوية» أ/ محمد عبد الله الخطيب ١٠٨/١.

(٣) «الصحوة الإسلامية» ص ٢٣٢

(٤) سورة البقرة : ٢٨٦

(٥) ابن ماجه في سننه ك : الطلاق ، ب : طلاق المكروه والناسي : ٢ / ٢٢٤

وقال تعالى : «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» ^(١) يؤكد هذا قوله سبحانه : « لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ^(٢) ومن بذل جهده في معرفة الحق فأخطأ الطريق إليه ، لم يكن عليه جناح ولم يوجه إليه لوم ، وإلا كلفناه ما لا طاقة له به ، وهو منفي أيضاً بما دلت عليه الآية السابقة : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » ^(٣).

٥ - إحسان الظن بالخصم :

هذا أدب أخلاقي هام في مثل هذا المجال خاصة ، فينبغي إحسان الظن بالخصم ، وخلع المنظار الأسود عند النظر إليه ، ومن أعظم شعب الإيمان : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بالناس وفي مقابلتهما : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله . فسوء الظن خصلة من خصال الشر ، حذر منها القرآن وحذر منها رسول الله لأن الأصل حمل المسلم على الصلاح ، وألا يظن به إلا خيراً ، وأن يحمل ما يصدر منه على أحسن الوجوه وإن بدا ضعفها ، تغليباً لجانب الخير على جانب الشر . والله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ^(٤) والمراد به : ظن السوء الذي لم يقم عليه دليل حاسم .

ويقول الرسول ﷺ : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث» ^(٥) ومن المعلوم للمسلمين جميعاً أن أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ وأبعدهم منه مجالس يوم القيامة الباغين للبراء العثرات . إن المسلم الحقيقي هو من إذا سمع عن أخيه شراً طرد عن نفسه تصور أي سوء عنه وظن به خيراً ، انطلاقاً من قوله تعالى - في

(١) سورة الأحزاب : ٥

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦

(٣) سورة البقرة : ٢٨٦

(٤) سورة الحجرات : ١٢

(٥) متفق عليه . رواه البخاري ك : الأدب ب ما ينهي عن التحاسد والتدابير : ١٠ / ١٤٣ ورواه

مسلم : ك البر والصلة ، ب : تحريم الظن والتجسس : ٥ / ١٥٠

سياق حديث الإفك - : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١).

وإن المرء ليعجب غاية العجب ، ويتألم كل الألم ، حين يرى بعض العاملين للإسلام يتهم زميله أو أخاه بالعمالة أو الخيانة جريا وراء أعداء الإسلام فيقول عنه : إنه عميل للغرب أو للشرق أو للنظام الفلاني لمجرد أنه خالفه في رأي أو في موقف من المواقف. ومثل هذا لا يجوز بحال لمن فقه عن الله وعن رسوله ﷺ (٢)

٦- أن يكون الحوار بالتّي هي أحسن :

هذه دُعامة أساسية من الدعائم التي ينبغي أن يتّصف بها الحوار العلمي ، إن بعض المتحاورين في مسائل العلم والدين ، يخيل لمن رآه أو قرأ له كأنه يتقاتل لا أنه يتجادل ، وأن الذي في يمينه ليس قلماً يقطر مداداً أسود ، بل سيفاً يقطر دماً أحمر ، وكان الأولى أن يغلب الجو العلمي بهدوئه ورزاقته على الجو الانفعالي بشدته وسخونته ، وأن تهب الكلمات من الجانبين نسائم تنعش ، لا أعاصير تدمر. فالكلمة العنيفة لا لزوم لها ، ولا ثمرة تجتنى من ورائها ، إلا أنها تجرح المشاعر ، وتغير مودة القلوب وإن قال شوقي : «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية» فهذه الكلمة إنما تصدق على الاختلاف الملتزم بأدب الحوار وموضوعيته ، أما الحوار الذي يصحبه العنف والاتهام والتجريح فالأغلب أنه يفسد الود ويعكر صفو الأتفس. (٣)

إن الحوار بالتّي هي أحسن أسلوب قرآني فريد يجب أن نتعرف عليه ، فالله تعالى يقول في حوار أهل الكتاب من اليهود والنصارى : ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤) ، ومثل ذلك قوله تعالى في سورة أخرى : ﴿قُلْ

(١) سورة النور : ١٢

(٢) «الصحوة الإسلامية» ص ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٥١

(٤) سورة العنكبوت : ٤٦

أُتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» ^(١) ، والمتأمل في مخاطبة القرآن الكريم لهم يرى أن الخطاب لهم إما بـ «أهل الكتاب» أو «الذين أوتوا الكتاب» من الأولى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.. ﴾ ^(٢) ، والآية التي تدل على الصيغة الثانية هي الآية التي كان يرسل بها النبي ﷺ إلى ملوك النصارى وأمرائهم مثل قيصر والنجاشي والمقوقس : ﴿.. وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ.. ﴾ ^(٣) .. حتى المشركون الوثنيون لم يخاطبهم القرآن بقوله : « يا أيها المشركون» بل كان يناديهم بقوله «يا أيها الناس» ولم يرد في القرآن الكريم خطاب للمشركين بعنوان الشرك أو الكفر إلا في سورة (الكافرون) وذلك لمناسبة خاصة هي قطع الأمل عند المشركين أن يتنازل المسلمون عن أساس عقيدتهم ، وهو التوحيد ، ولهذا قرر فيها المعنى الواحد بصيغ عدة تأكيداً وتثبيتاً ، ومع هذا ختمها بآية هي آية في السماحة وأدب الحوار : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ^(٤) ، فإذا كان هذا موقف المسلم ممن يجادلهم من أهل الكتاب الذين يخالفونه في عقيدته ، وأصل دينه ، ولا يؤمنون بأن محمد رسول الله ، ولا أن القرآن كتاب الله ، ولا أن الإسلام شريعة الله ، فكيف ينبغي أن يكون موقفه من أخيه المسلم الذي يؤمن بكل ما يؤمن به من عقيدة وشريعة ، ورسول وكتاب؟ ^(٥) لا شك أنه سيكون أكثر أدباً وأعلى خلقاً وأجمل عبارة. ما سبق ذكره طرفاً من أهم الضوابط الأخلاقية للحوار العلمي. واكتفيت بها خشية الإطالة في البحث.

(١) سورة البقرة : ١٣٩

(٢) سورة آل عمران : ٦٤

(٣) سورة آل عمران : ٢٠

(٤) سورة الكافرون : ٦

(٥) «الصحوة الإسلامية» ص ٢٤٨

المبحث الرابع :

ضرورة احترام رأي المخالف واستهداف الوصول إلى الحقيقة

من جميل القول : «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»
 «ومن الدعائم المهمة لتقريب الشقة وتقليل حدة الخلاف ، احترام الرأي الآخر المخالف ، وتقدير وجهات نظر الآخرين ، وإعطاء آرائهم حقها من الاعتبار والاهتمام»^(١) فالقصد من وراء ذلك التعارف لا التخالف.

وبينما نرى المذاهب الأرضية حريصة على وجودها وبقائها فهي من أجل ذلك تحاول إبادة الأطراف الأخرى لتنفرد وحدها بالحياة نرى للإسلام منهجه المستنى على كل مذاهب الأرض. لأن الإسلام يريد البقاء لجميع بالتوازن والتكامل ، وذلك ما قرّره الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٢) فالله سبحانه وتعالى يستدعي البشر جميعاً : مؤمنهم وكافرهم أبيضهم وأسودهم ، ليقول لهم : إذا فرقت بينكم الأوطان ، فإن هناك معنى مشتركاً يجمعكم جميعاً على بساط التعارف وكما أن لكل عضو في الجسم حياة خاصة به تمكنه من أداء وظيفته ، فهناك إلى جانب هذه الحياة الخاصة حياة مشتركة هي حياة الجسد^(٣) .. التي لا تكون إلا بالتعاقد ليبقى الإنسان حياً.

ولقد جعل المولى تبارك وتعالى من صفات أولى الألباب أنهم «يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» وكان ختام هذه الآية ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٤) إن لهذه الآية بعد قوي في ضرورة الالتزام بالحق وإتباعه عند ظهوره ، فالآية الكريمة بشارة مؤكدة بأمرين : بالفلاح والنجاح وهي بشارة لقوم :

(١) «الصحوة الإسلامية» ص ١٦٠

(٢) سورة الحجرات : ١٣

(٣) من أجل حوار لا يفسد للود قضية ص ١٢٠ ، ١٢١

(٤) سورة الزمر : ١٨

لم تقيد عقولهم آراء سابقة حول قضية معينة بحيث إذا سمعوا ما يغيرها رفضوه ، بل إنهم موضوعيون فيما يعرض عليهم من قضايا وآراء : يزنون بمنطق العقل ، ثم يختارون

من المعروض عليهم أعلى مراتبه وأحسنه متجاوزة العصبية والجهل والتقليد وهي الموانع الحاجزة عن الإقرار بالحق ، فهم يحملون أنفُساً مشوقة إلى الحق مهياة لاعتناقه. (١)

يقول الأستاذ «سيد قطب» : «.. إنهم يستمعون ما يستمعون من القول : فتلتقط قلوبهم أحسنه ، وتطرد ما عاداه ، فلا يلحق بها ، ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذي تزكو به النفوس والقلوب. (٢)

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي : «ينبغي أن يكون طالب الحق كناشد ضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده ، أو على يد من يعاونه ، ويرى فيه معيناً لا خصماً ، ويشكره إذا عرفه الخطأ ، وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته ، فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر ، فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم» (٣).

وما أجمل ما قاله الأستاذ العلامة «محمد رشيد رضا» في القاعدة الذهبية التي صاغها :

«نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» هذه القاعدة الطيبة والتي كان الإمام الشهيد «حسن البنا» - رحمه الله - حفيهاً بها ، حريصاً على الالتزام بها فكراً وعملاً حتى حسب كثير من تلامذته وأتباعه أنه واضعها» (٤).

(١) من أجل حوار لا يفسد للود قضية ص ١١٤

(٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣٠٤٥/٥ ط دار الشروق.

(٣) « من أجل حوار لا يفسد للود قضية» ص ١١٣.

(٤) «الصحوة الإسلامية» ص ١٥٩

ولقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : « رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب » وهذا الاحتمال من الجانبين : احتمال الخطأ في رأي المجتهد ، واحتمال الصواب في رأي غيره هو الذي يقرب المسافة بين الطرفين ، وهذا من إنصاف الإمام رضي الله عنه وسعة علمه ورحابة أفقه .

ومما يساعد على التسامح في الخلافات واحترام الرأي الآخر : الاعتقاد بإمكان تعدد الصواب ، فهناك أشياء أراد الشارع فيها أن تكون على أوجه مختلفة ، وأقرها كلها ، ولم يقصر الصواب على وجه واحد منها ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك : تعدد أوجه القراءة للقرآن الكريم ، الذي ثبت عن النبي ﷺ من طرق بلغت حد التواتر القطعي (١) ..

وغدونا نرى أثره في القراءات السبع أو العشرة المعروفة ، والتي يسمعوها المسلمون في كل مكان ويرون اختلافها ، ولا يجدون فيه أي حرج في دينهم ، ومن آثارها طبع مصاحف تختلف باختلاف هذه القراءات مثل مصاحف المشاركة المطبوعة على أساس رواية حفص عن عاصم ، ومصاحف المغاربة المطبوعة على أساس رواية ورش عن نافع .

وأصل هذا ما أقره النبي ﷺ أصحابه فأقرأهم على أكثر من وجه ، أو أكثر من حرف ، حتى إن بعضهم في أول الأمر أنكر على بعض قراءته المخالفة لما تلقاه ، ثم عرفوا أنهم جميعاً مصيبون ، وأن هذا أمر مقصود من النبي ﷺ ولهذا قال لابن مسعود ومن خالفه : « كلاهما محسن » .

وهناك قضايا يمكن أن يتعدد فيها الصواب بقيود معينة ، على معنى أن يكون الصواب مع هذا المجتهد في زمان ، ومع مخالفه في زمان آخر ، وكذلك يكون صواب المجتهد في قضية إذا نظر إلى المكان والبيئة والمحيط فيكون صواباً بالنسبة

(١) يراجع في ذلك «الصحوة الإسلامية» ص ١٦٢ : ١٦٣

له ، وإن لم يكن صواباً بالنسبة لغيره ، فدار الإسلام غير دار الكفر ، ودار السنة غير دار البدعة ، والبادية غير دار الحضر .

وكذلك يكون الصواب مع المجتهد في حال معينة ، ويكون مع غيره في حال أخرى ، فحال الضعف غير حال القوة ، وحال الاستضعاف غير حال التمكين ، وحال السعة غير حال الضرورة ، وحال الحديث العهد بالإسلام ، غير حال العريق في الإسلام الناشئ في أحضانه . وهذا هو ما اعتمده المحققون في القول بتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال والعرف وغيرها من موجبات التغيير .

حتى قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : «تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من فجور» .

ولقد كان الرسول ﷺ يعطي أجوبة مختلفة للسؤال الواحد مراعيًا أحوال السائلين .^(١)

وقد روى ابن عبد البر النمري بسنده إلى يحيى بن سعيد قال :

«ما برح أولو الفتوى يفتون ، فيحل هذا ، ويحرم هذا ، فلا يرى المحرم أن

المحل هلك لتحليله ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه» .^(٢)

وعلى عكس هؤلاء الذين يحترمون رأي مخالفهم ويستهدفون الوصول إلى الحق والحقيقة . نرى طائفة تعرض عن الحق بعدما تبين ، وهؤلاء قد ذمهم الله في قرانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾^(٣) ذلك أن الإعراض بعد العلم ظلم عظيم .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤) ولأنه بالمثال يتضح المقال ، ولكي ينجلي لنا الأمر أكثر وأكثر ، فنحن

(١) ينظر في ذلك «الصحوة الإسلامية» ص ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق نقلاً عن جامع بيان العلم وفضله ، ص ٧٣ .

(٣) سورة الزمر : ٣٢

(٤) سورة البقرة : ٨٩

الآن على مقربة من مواقف الصحابة والسلف الصالح لنرى كيف كان احترامهم لرأي مخالفهم.

نماذج من مواقف الصحابة وعلماء السلف في احترام الرأي المخالف.

ومع خير القرون ، مع الصحابة الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، مع الذين آمنوا بالرسول ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، نتأمل كيف كانت أخلاقهم السامية وصفاتهم الزاكية ونفوسهم العالية في احترامهم لرأي من خالفهم ، نأخذ غيضاً من فيض ، وقطرة من بحر لئلا يطول بنا البحث.

أولاً : معالم أدب الاختلاف عند الصحابة في عصر النبوة : أذكر منها ما يلي:

- ١- كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحاولون ألا يختلفوا ما أمكن ، فلم يكونوا يكثرّون من المسائل والتفريعات ، بل يعالجون ما يقع من النوازل في ظلال هدي الرسول ﷺ ومعالجة الأمر الواقع عادة لا تتيح فرصة كبيرة للجدل ، فضلاً عن التنازع والشقاق.
- ٢- إذا وقع الاختلاف رغم محاولات تحاشيه سارعوا في رد الأمر المختلف فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ وسرعان ما يرتفع الخلاف.
- ٣- سرعة خضوعهم والتزامهم بحكم الله ورسوله وتسليمهم التام الكامل به.
- ٤- تصويب رسول الله ﷺ للمختلفين في كثير من الأمور التي تحتمل التأويل ، ولدى كل منهم شعور بأن ما ذهب إليه أخوه يحتمل الصواب كالذي يراه لنفسه ، وهذا الشعور كفيل بالحفاظ على احترام كل من المختلفين لأخيه ، والبعد عن التعصب للرأي.
- ٥- الالتزام بالتقوى وتجنب الهوى ، وذلك من شأنه أن يجعل الحقيقة وحدها هدف المختلفين ، حيث لا يهم أي منهما أن تظهر الحقيقة على لسانه ، أو على لسان أخيه.

- ٦- التزامهم بأداب الإسلام من انتقاء أطايب الكلم ، وتجنب الألفاظ الجارحة بين المختلفين ، مع حسن استماع كل منهما للآخر .
- ٧- تنزههم عن المماراة ما أمكنهم ، وبذلهم أقصى أنواع الجهد في موضوع البحث مما يعطي لرأي كل من المختلفين صفة الجد والاحترام من الطرف الآخر ، ويدفع المخالف لقبوله ، أو محاولة تقديم الرأي الأفضل منه. ^(١) تلك أهم معالم «أدب الاختلاف» بين الصحابة في عصر الرسالة.

ثانياً : سمات أدب الاختلاف في عهد الخلافة الراشدة :

نعم اختلف الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ «لكننا نلاحظ أن الهوى لم يكن مطية أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - وأن الخلافات التي أفرزت تلك الآداب لم يكن الدافع إليها غير تحري الحق» ^(٢) وأهم ما تميزوا به في اختلافهم بعد عصر الرسالة ما يلي :

- ١- كانوا يتحاشون الاختلاف ، وهم يجدون عنه مندوحة ، فهم يحرصون الحرص كله على عدمه .
- ٢- وحين يكون للخلاف أسباب تبرره من مثل وصول سنة في الأمر لأحدهم لم تصل للآخر ، أو اختلافهم في فهم النص ، أو في لفظة كانوا وقافين عند الحدود يسارعون للاستجابة للحق ، والاعتراف بالخطأ دون أي شعور بالغضاضة ، كما كانوا شديدي الاحترام لأهل العلم والفضل والفقه منهم ، لا يجاوز أحد متهم قدر نفسه ، ولا يغمط حق أخيه ، وكل منهم يرى أن الرأي مشترك ، وأن الحق يمكن أن يكون فيما ذهب إليه هو ، ويمكن أن يكون الحق فيما ذهب إليه أخوه .

(١) «أدب الاختلاف في الإسلام» / طه جابر فياض ص ٥٠ ، ٥١

(٢) « المرجع السابق : ٧٢ »

٣- كانت أخوة الإسلام بينهم أصلاً من الأصول الهامة التي لا قيام للإسلام دونها ، وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.

٤- كانت نظرتهم إلى استدراكات بعضهم على بعض أنها معونة يقدمها المستدرك منهم لأخيه ، وليست عيباً أو نقداً. (١)

نماذج من هذا الخلاف :

يقول د/ طه جابر فياض : «والحق لو أننا حاولنا تتبع القضايا الخلافية بين الصحابة في مسائل الفقه وسلوكهم في عرض مذاهبهم لسودنا في ذلك كتباً ، وهذا ليس مبتغانا هنا ، إنما نورد نماذج - فقط - نستشف منها الآداب التي تربي عليها جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - لتدل على مدى التزامهم بأدب الاختلاف ..» (٢).

أ- اختلافهم في وفاته ﷺ :

فقد كان أول اختلاف بينهم ، بعد وفاته ﷺ ، حول حقيقة وفاته ﷺ فإن سيدنا عمر رضي الله عنه أصر على أن رسول الله لم يميت ، واعتبر القول بوفاته إرجافاً من المنافقين توعدهم عليه ، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه وقرأ على الناس قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٤) وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِه مِنْهَا ومن يرد ثواب الآخرة نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٤) فسقط السيف من يد عمر ، وخر إلى الأرض واستيقن فراق رسول الله ﷺ وانقطاع الوحي ، وقال عن الآيات التي تلاها أبو بكر «كأنني والله لم أكن قرأتها قط» وكان الذي حمله على مقالته تلك أنه كان يظن أن رسول الله ﷺ سيبقى

(١) المرجع نفسه : ٧٢ ، ٧٣

(٢) المرجع السابق : ٦٨

(٣) سورة آل عمران : ١٤٤ ، ١٤٥

(٤) سورة الزمر : ٣٠

في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها ، فهما من ظاهر الآية في قوله تعالى :
 ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
 شَهِيدًا﴾^(١) ما صرح بذلك لابن عباس رضي الله عنهما في خلافة سيدنا عمر .

ب- وكما اختلفوا في وفاته ﷺ اختلفوا في دفنه :

بين قائل : ندفنه في مسجده ، وقائل : بل ندفنه مع أصحابه ، فقال سيدنا أبو
 بكر رضي الله عنه : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما قبض نبي إلا دفن حيث
 يقبض» فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحفر له تحته»^(٢) فهذان أمران
 خطيران زال الخلاف فيهما بمجرد الرجوع إلى الكتاب والسنة.

ج- وحين نتلمس المزيد من أدب الاختلاف بينهم نعرض لبعض القضايا
 الخلافية : فمما اختلف فيه الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما غير ما مر . في
 (سبي أهل الردة) فقد كان أبو بكر يرى : سبي نساء المرتدين ، على عكس ما يراه
 عمر الذي نقد - في خلافته - حكم أبي بكر في هذه المسألة . وردن إلى أهلهن
 حرائر إلا من ولدت لسيدها منهن ، ومن جملةهن كانت (خولة بنت جعفر الحنفية أم
 محمد بن علي رضي الله عنهما).

كما اختلفا في قسمة الأراضي المفتوحة : فكان أبو بكر يرى قسمتها ، وكان
 عمر يرى وقفها ولم يقسمها.

وكذلك اختلفا في المفاضلة في العطاء فكان أبو بكر يرى التسوية في
 الأعطيات ، حين كان يرى عمر المفاضلة ، وقد فاضل بين المسلمين في أعطياتهم ..
 وعمر لم يستخلف على حين استخلفه أبو بكر ، كما كان بينهما اختلاف في كثير من
 مسائل الفقه .. ولكن الخلاف ما زاد كلا منهما إلا حبا في أخيه ، فأبو بكر حين
 استخلف عمر قال له بعض المسلمين : «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك

(١) سورة البقرة : ١٤٣

(٢) رواد ابن ماجه في ك : الجنائز : ب : ذكر وفاته ودفنه ﷺ : ٢ / ٧١ ورواد الترمذي في

الجنائز برقم ١٠١٩

عمر علينا ، وقد ترى من غلظته؟ قال : أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلِكَ».

وحين قال أحدهم لعمر رضي الله عنه : «أنت خير من أبي بكر. أجهش بالبكاء وقال : والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر». وهكذا اختلفت آرائهم وما اختلفت قلوبهم ، ولم يمنعهم الاختلاف من الأخذ بما يرونه حسناً عند أصحابهم.^(١)

د- بين عمر وعلي :

قد كان بينهما بعض الاختلافات ، ولكن في نطاق أدب رفيع. من ذلك : أن سيدنا عمر رضي الله عنه أرسل مرة إلى امرأة مغيبة (زوجها غائب) كان يدخل عليها فأنكر ذلك ، فأرسل إليها ، فقل لها : أجيبني عمر. فقالت : يا ويلاه ما لها ولعمر؟ فبينما هي في الطريق إليه فزعت فضربها الطلق ، فدخلت داراً فألقت ولدها ، فصاح الصبي صيحيتين ثم مات ، فاستشار عمر صاحب النبي ﷺ فأشار عليه بعضهم : أنه ليس عليك شيء إنما أنت وإل مؤدب ، وصمت علي رضي الله عنه فأقبل عليه عمر وقال : ما تقول؟ قال : إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيهم ، وإن كانوا قالوا في هواك فلم ينصحوا لك ، أي أن ديته عليك ، فإنك أنت أفزعتها ، وألقت ولدها بسببك ، فأمر عمر أن يقسم عقله (دية الصبي) على قومه .. وهكذا نزل عمر على رأي علي - رضي الله عنهما - ولم يجد غضاضة في العمل باجتهاده وهو أمير المؤمنين ، وقد كان في رأي غيره له منجاة.^(٢)

واضرب مثلاً أخيراً لخلافات الصحابة مع احترامهم لرأي من خالفهم ..

هـ- بين ابن عباس وزيد بن ثابت :

(١) أدب الإختلاف في الإسلام : ٦٢ ، ٦٣

(٢) أدب الإختلاف في الإسلام : ص ٦٣ ، ٦٤

كان بن عباس - رضي الله عنهما - يذهب كالصديق وكثير من الصحابة إلى أن الجد يسقط جميع الإخوة والأخوات في المواريث كالأب ، وكان زيد بن ثابت كعلي وابن مسعود وفريق آخر من الصحابة يذهب إلى توريث الإخوة مع الجد ولا يحجبهم به ، فقال ابن عباس يوماً : ألا يتقي الله زيد ، يجعل ابن الابن ابناً ولا يجعل أب الأب أباً ! وقال : لوددت أني وهؤلاء الذين يخالفونني في الفريضة نجتمع ، فنضع أيدينا على الركن ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين..

ومع ثقة ابن عباس بصحة اجتهاده وخطأ اجتهاد زيد إلى هذا الحد ، فإنه يرى زيد بن ثابت يوماً يركب دابته فأخذ بركابه يقود به ، فقال زيد : تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ فيقول ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا . فقال زيد : أرني يدك . فأخرج ابن عباس يده ، فقبلها زيد وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ..

وحين توفي زيد قال ابن عباس : « هكذا يذهب العلم » وفي رواية البيهقي في سنته الكبرى « هكذا ذهب العلم ، لقد دفن اليوم علم كثير » .^(١)

بمثل هذا التواضع ، والأدب الجم كان الصحابة رضوان الله عليهم يتقبلون الحق أينما وجد ويدورون معه حيثما دار .

« وفي عهد التابعين : »

نراهم يتأدبون بآداب الصحابة في اختلافاتهم وما خرجوا من تلك الآداب ، ولا جاوزوا سيرتهم ، ولعل مما يوضح ذلك الأدب هاتان المناظرتان في الدية :

أخرج عبد الرزاق من طريق الشعبي قال : جاء رجل إلى شريح فسأله عن دية الأصابع ، فقال : في كل إصبع عشرة من الإبل فقال الرجل : سبحان الله.. هذه وهذه سواء (مشيراً إلى الإبهام والخنصر) فقال شريح : ويحك ، إن السنة منعت القياس ، اتبع ولا تبتدع .

(١) « أدب الاختلاف في الإسلام » : ٦٧ - ٦٨

وأخرج مالك في الموطأ عن ربيعة قال: سألت سعيد بن المسيب : كم في إصبع المرأة ؟ قال: عشرة من الإبل ، قلت: ففي إصبعين ؟ قال : عشرون ، قلت ففي ثلاث ؟ قال ثلاثون . قلت : ففي أربع ؟ قال عشرون. قلت حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها (أي: ديتها) فقال: سعيد : أعراقي أنت؟ فقال ربيعة : بل عالم متثبت. أو جاهل متعلم. قال سعيد : هي السنة يا ابن أخي.

وينتهي الأمر عند هذا الحد دون أن يحتد طرف آخر ويتهم الآخر بالجهل أو يزعم لنفسه إصابة الحق ، وما يراه غيره الباطل . فذهب سعيد والحجازيين أن دية المرأة كدية الرجل حتى تبلغ الثلث من ديته ، فما زاد عن الثلث تكون فيه ديتها نصف دية الرجل ، ذلك لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ^(١) .. (عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى تبلغ الثلث من ديتها) ومذهب العراقيين أن ديتها نصف دية الرجل ابتداء ^(٢).

و- الفقهاء المجتهدون وتلامذتهم :

لقد اختلف الفقهاء المجتهدون في كثير من الأمور الاجتهادية ، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم ، وهم جميعا على الهدى ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق فقد كان الواحد منهم يبذل جهده وما في وسعه ولا هدف له إلا إصابة الحق وإرضاء الله جل شأنه ، ولذلك فإن أهل العلم في سائر الأعصار كانوا يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ما داموا مؤهلين ، فيصوبون المصيب ويستغفرون للمخطئ ويحسنون الظن بالجميع .. وكثيرا ما يصدرون اختياراتهم بنحو قولهم : «هذا أحوط» أو «أحسن» أو «هذا ما ينبغي» أو «نكره هذا» أو «لا يعجبني» فلا تضيق ولا اتهام ، ولا حجر على رأي له من النص مستند ، بل يسر وسهولة وانفتاح على الناس لتيسير أمورهم. ^(٣)

(١) «أدب الاختلاف في الإسلام» : ص ٧٦

(٢)- «أدب الاختلاف» : ص ٧٦ .

(٣) المرجع السابق ١١٧ - ١١٨ .

ولقد سجل الإمام مالك رضي الله عنه موقفاً تاريخياً حين أراد منه الخليفة العباسي «أبو جعفر المنصور» أن يجعل من كتابه «الموطأ» قانوناً عاماً لدولة الخلافة يلتزم به كافة وتلغى الآراء والاجتهادات الأخرى ، فقال له الإمام رضي الله عنه : «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس فدع الناس ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم» ويحكي نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد ، وأنه شاور مالكا في أن يعلق الموطأ في الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه فقال : «لا تفعل فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل سنة مضت ، قال : وفقك الله يا أبا عبد الله» ^(١) وهكذا رفض الإمام مالك حمل الناس على مذهبه في الموطأ.

والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كان يرى أن الحجامة تنقض الوضوء ، فسئل عن رأى الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ ، هل يصلي خلف الإمام ؟ فأجاب مستنكراً : «كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب؟!» وكان لا يريدان النقض بذلك ^(٢).

وروا أن الإمام الشافعي - رحمه الله - ترك القنوت في صلاة الصبح - حين صلى قريباً من مقبرة أبي حنيفة - تأديباً معه ^(٣).

وكان أبو حنيفة وأصحابه يرون الوضوء من خروج الدم ، ولكن أبا يوسف رأى هارون الرشيد احتجم وصلى ولم يتوضأ - لأن مالكا أفتى الخليفة بأن لا وضوء عليه إذا هو احتجم - فصلى أبو يوسف .. خلفه ولم يعد الصلاة ^(٤).

(١) ينظر في ذلك : «الصحوة الإسلامية» د/ القرضاوي ص ٨٤ ، وقد نقل الرواية الثانية من

كتاب «حجة الله البالغة» لحكيم الإسلام الدهلوي ١٤٥/١

(٢) يرجع في ذلك : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين : الشيخ الغزالي ص ٨٤ . وأدب

الاختلاف في الإسلام ص ١١٨ ، الصحوة الإسلامية ص ٨٤

(٣) الصحوة الإسلامية ص ٨٧

(٤) نقلاً عن دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ٨٤

ومن أفضل وأحسن الأمثلة القيمة في أدب الاختلاف بينهم تلك الرسالة العلمية الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وإمامها وعالمها «الليث بن سعد» إلى الإمام «مالك» يعرض فيها وجهة نظره في أدب جم رفيع حول كثير مما كان الإمام مالك يذهب إليه ويخالفه فيه الليث بن سعد. ونظراً لطول هذه الرسالة. فإنني أحيل إلى مكانها. (١).

ومن ذلك أيضاً ما كان بين أبي حنيفة ومالك - رضي الله عنهما - من تباين في الأسس التي كان يعتمدهما كل منهما فيما يخص مذهبه ، ولكن هذا لم يمنع - رغم فارق السن التي بينهما - أن يُجل الواحد منهما صاحبه ، وأن يكون معه على جانب كبير من الأدب مع اختلاف مناحيهما في الفقه..

أخرج القاضي عياض في «المدارك» قال : قال الليث بن سعد : لقيت مالكا في المدينة ، فقلت له : إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال عرقت مع أبي حنيفة ، إنه لفقيه يا مصري ، قال الليث : ثم لقيت أبا حنيفة ، وقلت له : ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ، ونقد تام (٢).

وقد كان «زفر» صاحباً لأبي حنيفة ، ومع ذلك كان يخالفه في الحكم ثم يوافق الشافعي فيه ، وهو على غير مذهبه.

وهذا الإمام «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه يقول لابن الإمام الشافعي : أبوك من الستة الذين أدعو لهم وقت السحر. إنه اختلاف في الرأي ولكنه أبداً محكوم بضوابط الأخلاق.

بل إن الحق الذي جمع بينهم أقامهم على أرقى معاني الوفاء : قال الشافعي لما حضرته الوفاة : «ليغسلني فلان» فلما حان الغسل. قال صديقه : «أروني

(١) ينظر : أدب الاختلاف في الإسلام : ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام : ١٢٤ . ١٢٥

مفكرته» فوجد عليه ديناً كبيراً ، فنقله إلى ذمته ، وقال : «هذا هو الغسل الذي أراده!»

ولعل من أجمل الصور في ذلك أيضاً و ما حكاه «الدميري» في كتابه «حياة الحيوان» قائلاً :

كان الشافعي جالساً بين يدي مالك - رضي الله عنه - فجاء رجل فقال لمالك : إني رجل أبيع القمارى ، وإني بعث في يومي هذا قمرياً فردده على المشتري ، وقال قمريك لا يصيح. فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح ، فقال الإمام مالك : طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها. وكان الشافعي يومئذ سنه أربع عشرة سنة فقال : أيما أكثر ، صياح قمريك أم سكوته؟ فقال الرجل : بل صياحه فقال الشافعي : لا طلاق عليك. فقال مالك للشافعي : يا غلام من أين لك ذاك ؟ فقال : لأنك حدثتني عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت : يا رسول الله ، إن أبا جهم ومعاوية خطباني ، فقال ﷺ : «أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه .. عن عاتقه^(١)» وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح ، وقد قال ﷺ : لا يضع عصاه على سبيل المجاز والعرب تجعل أغلب الفعلين كمدأومته ، ولما كان صياح قمري هذا أكثر من سكوته جعلته كصياحه دائماً. فتعجب الإمام مالك رضي الله عنه من احتجاجه وقال له : أذنتُ ، فقد آن لك أن تُفتى.

فننظر ولنتأمل كيف انقاد الإمام مالك لرأي غلام من تلاميذه ولم يأنف من قبوله حينما تبين له أن الحق بجانبه^(٢).

هذا .. وقد حفلت كتب التراجم والتاريخ والمناظرات ونحوها بالعديد من الصور الدقيقة والتمتع من المناظرات العلمية التي جرت بين هؤلاء العلماء وتميزت «بأدب الاختلاف» ولا يكاد المرء يفتقد هذا الأدب بين أهل العلم إلا بعد شيوع التقليد

(١) رواد مسلم ك : الطلاق ب : المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها : ٤ / ١٣٠ ويراجع من أجل حوار

لا يفسد للود قضية ١٢٨ ، ١٢٩

(٢) من أجل حوار لا يفسد للود قضية : ١١٧ - ١١٨

وما رافقه من تعصب وتعثر في سلوك أهل العلم ، ووجود علماء غدت الدنيا مطلبهم واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وصار الدين هو طريقهم الوحيد في الوصول إلى أبواب الولاية وكسب عطفهم والحصول على ودهم^(١).
فما أحوج الساحة الإسلامية إلى هذا الأدب الرفيع. والتخلي عما سواه.

(٣) نقلاً عن : أدب الاختلاف في الإسلام : ١٢٢ ، ١٢٣ بتصرف كبير.

المبحث الخامس : الفرق بين المراء والجدال الحسن وأمثلة ذلك

للتفريق بين المراء والجدال الحسن ، نذهب أولاً إلى كتب اللغة لنعرف مدلول الكلمتين (مراء ، جدال). أما المراء : فقد جاء في المصباح المنير : (مار الشيء مورا من باب «قال» تحرك بسرعة ، وناقاة مواراة اليد : سريعة ، ومار : تردد في عرض ، ومار البحر : اضطرب ، ومار الدم : سال) ^(١)

وجاء في «لسان العرب» : (ماريت الرجل أمارية مراء إذا جادلته ، ومراه حقه : أي جرده. والامتراء في الشيء : الشك فيه وكذلك التماري ، والمراء المماراة والجدل ، ومارت الناقة في سيرها موراً : ماجت وترددت) ^(٢)

وفي ضوء هذه المعاني يمكن القول بأن المراء : فيه حدة ، وسرعة وتردد ، واضطراب ، وخفة وسيولة ، ومخاصمة ، ومعنى ذلك : أن يثور بين المتخاصمين غبار أكثر ، ويتصاعد دخان أكبر ، ولا يمكن الوصول إلى الحق في خضم هذه الأهواء المتشابكة و وفي غاية من الحدة والخفة ، والتردد ، والاضطراب. جاء في الإحياء : «المراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزية الكياسة». فكل واحد مهما يريد قتل صاحبه لينفرد هو بالساحة ، ومن أجل ذلك : فهي معركة تنتهي حتماً بهزيمة الفريقين ^(٣) ..

.. من أجل هذا كان المراء شراً كله على ما تشير إليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

من القرآن نرى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ

(١) نقلاً عن : «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٣١.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (مرا) ٦ / ٤١٨٩

(٣) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٤٠

(٤) سورة الحج : ٨ ، ٩

إلى الذي حَاجَ إبراهيم في رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴿١﴾

فهذا الممارى المتجبر يزعم أنه يحيي ويميت ، لأنه يحكم على بعض الناس بالموت ، ثم يعفو عنهم فيقول : قد أحْيَيْتَهُمْ ! ويحكم على آخرين وينفذ الحكم ، فيقول : قد أَمَيْتَهُمْ ! فهذا يفسر الإحياء والإماتة كما يشاء ، وليس هذا هو التفسير الذي يعرفه الناس ، والذي قصده إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (٢)

ومن الأحاديث : ما جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «أنا زعيم ببیت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» (٣). وهكذا فالذي يترك الجدال ويقطع حبله وهو مبطل له بيت في ضواحي - الجنة إن صح التعبير ، بينما الذي يتركه وهو محق له بيت في وسطها فهو خير من سابقه لماذا؟ لأن عودة المبطل إلى الحق سهلة من حيث إن حجته ضعيفة ، أو لا حجة له أصلاً وقد تكون له رغبة في العودة لكن يمنعه العناد ، أو الخجل. أما المحق ، فعودته للحق صعبة ، وله مندوحة في الثبات على رأيه ، ومن ثم فعودته تفرض عليه ثمناً باهظاً ، ولهذا فعدم استمراره في الجدال تضحية كان له كفاؤها بيت في وسط الجنة. وخير من الاثنين معاً من ترك المراء ابتداءً ، واشتغل بتحسين خلقه ليدعو به لا بالقوة. (٤).

(١) سورة البقرة : ٢٥٨

(٢) الصحوة الإسلامية : ٢٤٠

(٣) رواد أبو داود في كتاب : «الأدب» ١ / ٢٥٥ ومعنى زعيم : أي كفيل : والربض : الأسفل ، والمراد بالبيت : القصر ، المرجع السابق ص ٢٤٠.

(٤) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٣٢

ومن أمثلة ذلك : ما جاء عن أبي الدرداء. قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتبارى في شيء من أمر الدين ، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال : «مهلاً يا أمة محمد : إنما هلك من كان قبلكم بهذا. ذروا المراء لقلّة خيره. ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى. ذروا المراء فإن الممارى تمت خسارته. ذروا المراء. فكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة. ذروا المراء. فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة. رياضها ووسطها وأعلاها. لمن ترك المراء وهو صادق. ذروا المراء ، فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان : المراء»^(١)

ففي هذا الحديث بين رسول الله ﷺ أضرار المراء : فلا خير في المراء إلا قليلاً : عرضاً قريباً سرعان ما يزول و هو يثير الحمية وإرادة المغالبة ، فينأى بالمتمارين عن الخط المستقيم^(٢) ومن شأن المؤمن أن يمنعه إيمانه من التعصب. والتركيز على ذاته ، مؤثراً اخذ حقائق دينه عن طريق الحوار الهادف المفيد ، وإذا حصل الممارى على ما يتخيله فائدة ظاهرة له ، فخسارته قد تمت بالمراء لأنه واحد من اثنين أحلاهما مر :-

إذا غلب خصمه فقد خسره وحرّم من مودته وإذا غلبه خصمه فقد خسر قدراً من كرامته وهيبته. والمراء وحده يشكل أكبر خطأ يقع فيه الإنسان. ولو لم يكن للإنسان إلا أنه من الممارين لكفاه إثماً جزاء احترافه جدلاً عقيماً كان أول ما نهى عنه الرسول بعد الشرك بالله تعالى.

يعني : لو خلت صحيفة أعمال ذلك المرائي من الكذب والغيبة «وكل الموبقات» وبقي فيها حب المباراة فقط لغطت مساحة النفس كلها وكانت كفاية^(٣).

(١) مجمع الزوائد للهيتمي : ك العلم ب : ما جاء في المراء برقم ٧٠٤ : ١ / ٣٨٨ وعزاه للطبراني في الكبير.

(١) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٣٣

(٢) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٣٣ ، ٣٤

ومن أقوال السلف الصالح - رضوان الله عليهم :

«ما قاله مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم وبها يبتغي

الشيطان زلته»

وعن الحسن قال : «المؤمن يداري ولا يماري ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت

حمد الله ، وإن ردت حمد الله».

وقال محمد بن الحسين : «وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان

ويورث التفرقة بعد الألفة ، والوحشة بعد الأنس^(١)»

من صور المراء :

أ- وفد أحد المولعين بالمراء على النبي ﷺ «وعليه شارة حسنة» فجعل النبي

لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي ﷺ. فلما انصرف قال

رسول الله ﷺ : «إن الله لا يحب هذا وأضرابه ، يلوون ألسنتهم للناس لي البقر

بلسانها المرعى. وكذلك يلوي الله تعالى ألسنتهم ووجوههم في النار»^(٢) فهذا رجل

لم يردعه جلال النبوة فأساء الأدب مع المؤيد بالوحي ﷺ وكيف أغراه اللباس الحسن

، والمنطق المزين بمغالبتة ذاهباً بالتعصب إلى درجة ليس وبراءها وراء حتى باء

بلعنة صلبها الرسول عليه وعلى أمثاله من المتاجرين بالبيان في ساحة الحق.

ب- وعن جابر رضي الله عنه قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب

النبي ﷺ : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندري حتى نسأله. فجاء رجل

إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد : غلب أصحابك اليوم. قال : «وبم غلبوا؟» قال : سألهم

يهود : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم. قال : «فماذا قالوا؟» قالوا : لا ندري حتى

نسأل نبينا.

(١) أخلاق العلماء لأبي بكر الأجرى ط دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع : ٣٨

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ك : الزهد ب : فضل الفقراء برقم ١٧٨٩٩ وعزاد

للطبراني في الكبير ٦٤٠/١٠

قال : «أفغلب قوم سنلوا عما لا يعلمون. فقالوا : لا نعلم؟» - ولكنهم أي اليهود - سألوا نبيهم فقالوا : أرنا الله جهرة .. ^(١) إن اليهود هنا يجرون المسلمين إلى معارك جليلة جانبية لا تغني عن الحق شيئاً ولقد كان المسلمون عند حسن الظن بهم

أمناء على الحق. فلم يجيبوا عما لم يعلموا ، وقام بإبلاغه ﷺ رجل لعله من الصائدين في الماء العكر و ممن يحسبون الغلبة بشقشقة اللسان نصراً يستحق التهنئة. ففاجأه ﷺ بسلامة موقف أصحابه ، منوهاً بحكمتهم التي منعتهم من الخوض فيما لا يعلمون ، معرضاً في نفس الوقت بتاريخ اليهود الشاهد ببطرتهم وعنادهم حين قالوا لموسى عليه السلام : (أرنا الله جهرة) وبهذا وضح الفرق الحاسم بين المسلمين واليهود. ^(٢)

وما سبق ذكره نذر يسير عن المراء وتعريفه وتحذير الإسلام منه وأمثلة لذلك.

الجدال الحسن وأمثلة ذلك :

تعريف الجدل في اللغة :

«ذكر ابن فارس في «مقاييس اللغة» الجيم والداد واللام : أصل واحد. وهو من باب : استحكام الشيء في استرسال يكون فيه امتداد الخصومة ومراجعة الكلام» ^(٣)

وجاء في «لسان العرب» : «جدل : الجدل : شدة القتال. وجدلت الحبل أجده جدلاً إذا شددت قتله وفتلته فتلاً محكماً» ^(٤)

(١) المرجع السابق ص ٣٧ والحديث رواه الترمذي ك : التفسير ب : سورة المدثر برقم ٣٣٣٩ ،

١٤٠ / ٣

(٢) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٣٧

(٣) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٢١

(٤) لسان العرب : ٥٦٩/١ مادة (جدل)

وفي «مختار الصحاح» : جادله : خاصمه. والجدل هو : شدة الخصومة»^(١)
وجاء في «المصباح المنير» : [جدل الرجل جدلاً ، فهو جدل ، من باب : تعب
إذا اشتدت خصومته ، وجادل مجادلةً وجدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق
ووضوح الصواب. هذا أصله. ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأهلة
لظهور أرجحها]^(٢)

وهكذا تشير معاجم اللغة إلى أن معنى الجدل : «الشدة والمغالبة ، وإرادة
الانتصار ، والإحكام ، والإلزام ، وامتداد الخصومة ، وما يستتبعه من عرامة الانفعال
، وتوقع الصدام إن لم يقع بالفعل ، مما يجعل المجادل على خطر عظيم ، إن لم يلتزم
بآداب الإسلام»

وفي الاصطلاح : «الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم
بإبطال مدعاة ، وإثبات دعوى المتكلم ، وهو على معنيين : محمود ومذموم»^(٣) :
«فالجدال المحمود : ما سلمت بواعثه من الخلل ، واستقامت طريقته على الجادة ، ثم
استهدف غاية شريفة تحق الحق ، وتبطل الباطل ، والمذموم : ما كان خبيثاً في
بواعثه وطريقته ، وغايته ، ومن وراء الجدل المذموم باعثنان : الترفع ، وإرادة
إظهار نقص الغير ، وأما غايته فهي : إفحام الغير ، وإسكاته وتعجيزه ، لا تقويه
الحق وإعلاؤه»^(٤)

والذي نلاحظه من استعمالات القرآن الكريم لهذه الكلمة ، أن استعماله بمعناه
«المذموم» هو الغالب وكأنها صيحات تحذير من القرآن الكريم للبعد عنه وتجنبه ،
ومن ذلك ما يلي :-

(١) أدب الحوار والمناظرة د. علي جريشة : ١٩

(٢) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٢١ ، ٢٢

(٣) الدعوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة د/ محمد رجب الشتيوي ط : دار الطباعة المحمدية

: ١٤٩

(٤) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٢٣

قوله تعالى : «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب» ^(١) ، «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم» ^(٢) وقوله تعالى : «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة» ^(٣) وقوله جل شأنه : «وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون» ^(٤) .. إلى غير ذلك من الآيات.

قال الإمام الرازي : تفسيراً لقوله تعالى : «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا» «الجدل : نوعان : جدال في تقرير الحق ، وجدال في تقرير الباطل ، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال تعالى : لمحمد ﷺ : «وجادلهم بالتتي هي أحسن» وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام : «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ..»

أما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم» ^(٥) . وهو المراد بالآية المقصود تفسيرها.

«ولكي يبقى الجدل جدولاً جارياً بالخير والنماء ، فلا بد من الأخلاق النبيلة ضماناً يظل به العطاء موصولاً» إذا فليكن الحديث هنا عن الجدال الحسن أو بالتتي هي أحسن :-

يقول الله تعالى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتتي هي أحسن» فهذا النوع من الجدل هو الذي مدحه المولى سبحانه ، وكان منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام في الدعوة إلى الله مع أقوامهم ^(٦) .

(١) سورة غافر : ٥

(٢) سورة النساء : ١٠٧

(٣) سورة النساء : ١٠٩

(٤) سورة الحج : ٦٨

(١) مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ١٤ / ٢٦ - ٢٧ ط : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(٢) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٧٩.

يقول ابن كثير : في تفسير الآية السابقة : «إن من احتاج من القوم الذين تدعوهم إلى الله تعالى إلى مناظرة وجدال فليكن الوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كما قال الله لموسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾»^(١)

والجدل بالتّي هي أحسن : «يمثل الطريقة العملية المثلى للوصول إلى الهدف والبلوغ إلى الغاية»^(٢). وذلك لأن الطرق الجدلية التي تعتمد على التماس نقاط الضعف عند المخالف ، وتوجيه الضربات المتلاحقة إليه ، وإثارة أعصابه بالأساليب العنيفة المنافية لاحترام ذاته وفكره. لا تملك أن تقدم للعقيدة مؤمناً يعيش الإيمان بروحه

وعقله ، وذلك لأن هذه الطرق تهاجم كبرياء الإنسان وكرامته في الصميم. فكان ولا بد من طريقة تشعر المخاطب بأننا وإياه رفيقان في رحلة الوصول إلى الحق وأنتك تحترم ذاته وفكره ، ولذا فأنّت تعيش معه في مجال الصراع الفكري بهدوء واتزان»^(٣)

وليست هناك طريقة تأخذ بيد الإنسان الجائر إلى شاطئ النجاة سوى طريقة الجدل بالتّي هي أحسن..
أمثلة للجدال الحسن :

القرآن الكريم كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا نظرنا بين دفتي المصحف لوجدنا أن القرآن الكريم قد حوى الكثير من الأمثلة التطبيقية للجدال الحسن ، سيما فيما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم ، ولأن المقام هنا يضيق عن احتوائه لهذه الأمثلة ، فأذكر منها القليل :-

(١) تفسير ابن كثير : ١١٥/٣ ط : دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) الدعوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة : ١٥٠

(٣) «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتّي هي أحسن» د/ مصلح

بيومي. الناشر : المكتبة التوفيقية : ٦٧

أ- مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام :

إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام حينما تخرج إلى هذه الحياة ، فتح عينيه فإذا به يجد مجتمعاً وثنيّاً يعبد الأصنام والأوثان من دون الله تعالى ، ويغضب - الله تعالى - خاصة حينما يجد البيت الذي نشأ فيه يصنع هذه الآلهة المزعومة فيضطرب أن يواجه أباه صانع هذه الأصنام قبل أن يواجه المجتمع الذي يعيش فيه ، ولكن في أدب وجدل بالتّي هي أحسن ^(١) :-

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْذِكْ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ ^(٢) بعد هذا الحديث الهادئ الصادر من قلب مفعم بالإيمان يحب الخير للناس كافة ولأبيه وأهله خاصة. نجد أن أباه يثور عليه ثورة عارمة ويتعجب كيف يرغب ابنه عن آلهة أبيه التي يصنعها. بل يهدده إن لم يرجع عن دينه الجديد الذي جاء به ... ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرَنِي مَلِكاً﴾ ^(٣)

وهنا لم يجد إبراهيم الخليل جواباً شافياً على والده بعد ما أدى ما عليه من تبليغ للرسالة ، وتأدية للأمانة ، وتبصير لأبيه نحو الطريق الصحيح ، سوى أن يقول له : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ ^(٤) وهذا الاستغفار من إبراهيم لأبيه - مع كفره وعناده - كان عن مواعده وعدها إياه ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ

(١) «ادع إلى سبيل ربك» : ٦٩

(٢) سورة مريم : ٤٢ - ٤٥

(٣) سورة مريم : ٤٦

(٤) سورة مريم : ٤٧

لأبيه إلاً عن موعدة وعذها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم» (١)

ولكن هل بعد تبصيره لأبيه والدعاء له بالمغفرة عاش في هذا الجو المملوء بالعبادة لغير الله تعالى..؟ لو فعل هذا لكان راضياً عن هذه المساوئ .. بل اختط لنفسه منهجاً لكي يسير عليه فقال : «وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (٢) ماذا كانت نتيجة هذا الاعتزال؟ «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» (٣)

فهذا درس بليغ ونموذج طيب من خليل الله إبراهيم عليه السلام في الجدل بالتي هي أحسن لمخالفيه في العقيدة. فينبغي أن نضعه نصب أعيننا لنتأسى به في الجدل مع الآخرين ونقتدي بهذه الأخلاق الطيبة لرسول الله. وكذلك حكى القرآن الكريم حواراً آخر لإبراهيم عليه السلام مع قومه اتصف فيه بالموضوعية والهدوء والخلق الحسن (٤)

ب- مع القرآن في حوار مع المخالفين : أذكر هنا نموذجاً رائعاً من نماذج حوار القرآن مع المخالفين وكيف يتنزل معهم في الكلام ، ويرخى لهم العنان ليستميلهم إليه ، ويقربهم إلى ساحته ولا يستثير دوافع الخصومة ، وحب الجدل في نفوسهم بل يحاول بأسلوبه الرفيق الحكيم.

(١) سورة التوبة : ٤٨

(٢) سورة مريم : ٤٨

(٣) سورة مريم : ٤٩ ، ٥٠

(٤) هذا الحوار في سورة الأنبياء : ٥١ - ٧٠

يقول تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تَسْأَلُونِ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ (١)

يقول الفخر الرازي في تفسير هذه الايات : «هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها . وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر : هذا الذي تقوله خطأ ، وأنت فيه مخطئ يفضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر ، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح ، والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق ، فنجتهد ونبصر أننا على الخطأ ليحترز ، فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب ، وذلك لا يوجب نقصاً في المنزلة ، لأنه أوهم بأنه في قوله شك . ويدل عليه قول الله تعالى : لنبيه : ﴿وإنا أو إياكم﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي ، وهم الضالون ، والمضلون. ثم قال تعالى ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونِ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أضاف الإجماع إلى النفس وقال في حقهم ﴿وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لنلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم ، وقوله : «لا تسألون» ، «ولا نسأل» زيادة حث على النظر ، وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه ، فإذا احترز نجا ولو كان البرئ يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكر ، فإن مجرد الخطأ والضلal واجب الاجتناب ، فكيف إذا كان

يوم عرض وحساب وثواب وعذاب» (٢)

وهكذا أدار القرآن هذا الحوار الرائع مع المخالفين بأسلوب رائع في الجدل بالتتي هي أحسن.

(١) سورة سبأ : ٢٤ - ٢٦

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٥ / ٢٢٢ - ٢٢٣

ج - من مشكاة النبوة :

رضي المشركون لأنفسهم أن يكونوا على أسوأ ما يكون الجدل فسخروه لدحض الحق دون أن يملكو من وسائل العلم والهدى ما يحشرهم في زمرة الباحثين» ^(١) ، ومن الأمثلة الكثيرة من جدالهم مع الرسول ﷺ اقتبس مثلاً واحداً ، وذلك حينما فشلت أساليب الترهيب والتخويف التي استخدمتها قريش ضد الرسول ﷺ فرأت أن تجرب أسلوباً آخر ، وهو أسلوب الترغيب ، فأرسلت إليه رجلاً اشتهر بالرزانة والهدوء وهو «عتبة بن ربيعة» فذهب إلى النبي ﷺ وكان جالساً وحده في المسجد الحرام ، وعرض عليه «عروضاً» من شأنها أن تكسر أقوى إرادة ، قال للرسول : «يا بن أخي : إنك منا حيث قد علمت ، من الشرف والعلا في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها. فقال له : «قل يا أبا الوليد .. اسمع» ، قال : يا ابن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً - أي جنيأً - طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه». فلما فرغ عتبة من كلامه قال له ﷺ : «أو قد فرغت يا أبا الوليد» قال : نعم. قال الرسول ﷺ : «فاسمع مني؟» فقال عتبة : «إني مستمع ، فتلا عليه ﷺ الآيات الأولى من سورة «فصلت» حتى آية السجدة ، فسجد ^(٢) رسول الله ﷺ ثم قال : «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت. وأنت وذاك» .. إن «عتبة» ومن ورائه الملا من قريش يعرض أموراً من شأنها أن تذلل رقاب الرجال

(١) «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ١٠١

(٢) المرجع السابق : ١٠٠

الراغبين في الملك والترف والزعامة. ولكن الرسول ﷺ يحسم الموقف لحساب المبادئ بالقلب الودود والبرهان القاطع.

فعلى رغم بطلان الدعوى ، إلا أنه ﷺ يعطي « عتبة » حقه في عرض وجهة نظره : « قل أسمع » حتى إذا انتهى من بسطها لا يعطي الرسول نفسه حق الرد حتى يستأذن « عتبة » أولاً ، وذلك قوله : « أو قد فرغت؟ » ثم يناديه بأحب الأسماء إليه : « يا أبا الوليد » فلما أعلن عتبة فراغه من بسط عروضه ، بدأت الحجة النبوية كعصا موسى تلقف ما يأفكون ، لقد تجاهل ﷺ ذلك المدخل الدبلوماسي الناعم في قوله : « يا ابن أخي » : إنك منا حيث قد علمت من الشرف ، والعلا في النسب. ثم تجاوز العروض المغرية المجزية .. ليواجه الرجل بحقائق عرضها عليه من خلال الآيات التي تليت على مسامعه ، فقد أثر الرسول ﷺ أن يخلي بين عتبة وبين الحقيقة القرآنية التي انقضت كالصقر الجسور على جسد هامد ، فصحا على دقات الحقيقة ليقول لقومه وقد عاد إليهم : « سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش : أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ».

ولا شك أن هذا الاعتراف كان ضربة موجهة إلى الملأ من الداخل ومن ثم كانت موجعة ، وهكذا نجح الرسول ﷺ بهذا الأدب الجم في حوارهِ وجداله في إحداث « ربكة » داخل صفوف الأعداء فشغلوا عنه بما قاله وافدهم إليه .. لقد نجح أولاً في إغارة الباطل سمعه رغم تفاهته : « قل : يا أبا الوليد .. أسمع » ثم نجح ثانياً في الخروج من مصيدة المساومة لتتوب عنه الآيات الصارمة في حسم القضية ، فكانت هذه الخلطة التي تجعل بأس القوم بينهم شديداً ^(١).

بهذا ضرب الرسول ﷺ وهو القدوة الطيبة والأسوة الحسنة أروع الأمثلة في الجدل الحسن. وبذلك تجلت أماننا صفحة قيمة تبرز لنا مدى حضارة الإسلام في

(١) يراجع في ذلك : « من أجل حوار لا يفسد للود قضية » : ١٠١ - ١٠٣

معاملة الخصوم ، فأولى بنا أن نتخلق بهذا الخلق إذا كان ولا بد من جدال .. فليكن بالتالي هي أحسن.

المبحث السادس :

التعصب والجمود من أسباب الجفوة والعدوان على سماحة الإسلام

جاء في «لسان العرب» : والتعصب : من العصبية. والعصبية : أن يدعوا الرجل إلى نصره عصبته والتألب معهم ، على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا ، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل : تعصبوا» (١) فالكلمة إذاً تعني الانتصار للرأي على حق كان أم على باطل ، وعدم قبول رأي الآخرين.

وفي «لسان العرب» : «جمد بالتحريك : أي الماء الجامد ، والحمد بالتسكين : ما جمد من الماء وهو نقيض الذوب ، ورجل جامد العين : قليل الدمع ، وناقة جماد : أي لا لبن لها. وسنة جامدة : لا كلاً فيها ولا خصب ولا مطر ، وأرض جماد : قيل هي الغليظة ، وقيل : لم تمطر..» (٢) فالكلمة تعطي معنى : الغلظة وعدم اليسر والسهولة في الرأي ، وعدم الانقياد لرأي الآخرين.

ومن نافذة القول : أن الإسلام دين اليسر والسماحة ، وقد نفى الله الحرج عن هذا الدين القائم على التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير. قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣) والإسلام يحرص على الاعتدال ويحذر من التشدد والتعصب ، وينفر من هذه المسالك.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : «إياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» (٤) والمراد بمن قبلنا أهل الأديان السابقة من أهل الكتاب قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ

(١) لسان العرب : ٤ / ٢٩٦٦ مادة (عصب).

(٢) المرجع السابق : ١ / ٦٧٣ مادة (جمد)

(٣) سورة الحج : ٧٨

(٤) رواه أحمد في مسنده : برقم ٣٢٤٨ ، ٣ / ٣٨٧.

سواء السبيل»^(١) وها هو رسول الله ﷺ يحذر من التنطع في الدين وينذر أصحابه بالهلاك

فيما رواه عنه ابن مسعود رضي الله عنه قال : «هناك المتنطعون»^(٢) قالها ثلاثاً سواء كان هذا القول إخباراً عن هلاكهم أم دعاء عليهم. والمتنطعون - كما قال الإمام النووي - : المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. وقيل المتنطعون في السؤال عن عويص المسائل التي يندر وقوعها ، ورأى ثالث يقول : هم الغالون في عباداتهم بحيث يخرج عن قوانين الشريعة ويستترسل مع الشيطان في الوسوسة.

وأشد من ذلك : البحث عن أمور معينة ، ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيةها ، ومنه ما لا يكون له شاهد في عالم الحس كالسؤال عن الساعة والروح ومدة هذه الأمة ، إلى أمثال ذلك ، مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف. وأكثر ذلك لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به بغير بحث.

وقال بعضهم : مثال التنطع إكثار السؤال حتى يفضي بالمسئول إلى الجواب بالمنع ، بعد أن يُفتى بالإذن^(٣).

ولا ريب أن التنطع والغلو في الدين يدفع إلى التشديد في الأمور الصغيرة ، والضيق بكل مخالف فيها ، على حين تكون السماحة واليسر من أسباب التقارب والوفاق ، وهذه الروح هي التي جعلت الصحابة ومن تبعهم بإحسان يتسامحون في الفروع الجزئية. ولا تضيق صدورهم بالخلاف فيها ، بل كانوا ينكرون على من يجعل البحث عن هذه الأمور شغله الشاغل ، ولا يرحبون بهذا النوع من السؤال ، الذي لا يأتي من ورائه إلا التشديد. والقرآن نفسه نبه على هذا الأصل حين قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدُّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ

(١) سورة المائدة : ٧٧

(٢) مسلم في صحيحه كتاب العلم ب : هلك المتنطعون : ١٦ / ٢٢٠.

(٣) يراجع «الصحوة الإسلامية» د. القرضاوي : ٩٧ ، ٩٨

الْقُرْآنُ تَبَدُّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» ^(١) والنبي ﷺ يحذر من كثرة الأسئلة التي تنتهي بالتشديد على المسلمين وذلك حين قال : «إن أعظم المسلمين جرماً رجل سأل عن شيء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته» ^(٢).

وقال : «ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» ^(٣) وهو يشير هنا إلى بني إسرائيل وتنتطعهم مع موسى في قصة ذبح البقرة وسؤالهم مرة بعد مرة : ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ ولو ذهبوا بعد الأمر الأول إلى أي بقرة فذبحوها لأجزأتهم ، ولكن شدد الله عليهم. ^(٤)

إن التعصب والجمود ظاهرتان خطيرتان ، فقد تبرز إحداها في ميدان الالتزام الشخصي للإسلام فتؤدي إلى الإفراط والغلو ، وهذا أمر خطير ، وقد تظهر في نطاق العمل الإسلامي فتؤدي إلى عكس المطلوب ، إن المطلوب التبشير والتيسير ، ولكن التعصب يدفع الآخرين إلى النفور والإعراض ، ومن هنا جاءت الأحاديث تبين فضل الرفق. روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » ^(٥). وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله رفيق يحب الرفق : ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواد » ^(٦).

(١) سورة المائدة : ١٠١

(٢) رواد البخاري في الاعتصام . ب : ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه : ٧

١٤٠/

(٣) رواد مسلم ك : الحج ب : فرض الحج مرة في العمر برقم ١٣٣٧ . ٣ / ١٥٠

(٤) الصلوة الإسلامية : ١٠٠

(٥) رواد البخاري : ك : الأدب ب : الرفق في الأمر كله : ١٠ / ١٤٠

(٦) رواد مسلم : ك : البر والصلوة والآداب ، ب : فضل الرفق : ١٦ / ١٤٦

والتشدد مخالف لسنة الرسول ﷺ كما هو مخالف للقرآن الكريم. قال الله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» ^(١).. وقد تظهر هذه الظاهرة في نطاق إزالة المنكر - كما نرى الآن - فتتسبب في توريط العمل الإسلامي بل وتعطله وتسيء إليه ، وتعطي الأعداء الفرصة للهجوم عليه. ^(٢)

فالدين يسر ولن يشاد الدين أحداً إلا غلبه ، وقد بين العلامة الدهلوي في كتابه القيم (حجة الله البالغة) ما كان عليه حال الصحابة في عصر النبوة من السهولة واليسر في فهم الدين والعمل به ، وبعدهم عن التعمق والتعقيد والتشديد ، بخلاف ما صار إليه من بعدهم» ^(٣) قال : أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب ، وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي ، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل ، فهذا كان غالب حاله ﷺ .. لم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة ، حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله ، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن...

وقال ابن عمر : لا تسأل عما لم يكن ، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن.

(١) سورة آل عمران : آية : ١٥٦

(٢) ينظر : مفاهيم تربوية للأستاذ : محمد عبد الله الخطيب ٩٠/١ - ٩١

(٣) الصحوة الإسلامية : ١٠٢

وعن عمر بن إسحاق قال : لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم ، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم « ^(١) . لقد كان هذا دأبهم وتلك أخلاقهم : التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير .

المبحث السابع : سماحة الإسلام في المعاملة والمجادلة

«دعا الإسلام إلى التسامح غير الذليل ، فهو يبني العلاقات الإنسانية سواء أكانت بين الآحاد أم كانت بين الجماعات على التسامح من غير استسلام للشر أو تمكين للأشرار»^(١). ففي ظل الإسلام ، ويوحى من أدبه العالي ، يتجه المسلم إلى الآخرين بقلب مفتوح ، مهما كانت ديانة هؤلاء الآخرين ، فاختلاف الدين لا يفسد قضية الود بين الاثنين ، ولا مانع من أن يمد المسلم يده بالبر والعدل إلى من خالفه في العقيدة ، ليتم بهذا البر لون من التعايش السلمي .. تصفو به الحياة ..

ومما يوضح هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٢). إن الآيتين الكريمتين تفرقان بين مستويين من المعاملة بحيث لا نسوي بين أعدائنا وجيراننا : فالآية الأولى تتحدث عن طائفة من المخالفين في الدين ، لا مانع لدى الإسلام من برهم ، والإحسان إليهم ، والعدل في معاملتهم وذلك بسبب أنهم : لم يقاتلونا من أجل الدين ، ولم يخرجونا من ديارنا. وينبغي أن يظل المسلم عنوان هذا البر ما كان تصرف الآخرين محكوماً بهذه القاعدة ، وإذا سول الشيطان لبعض المغرورين أن يحولوا أجمل مسجد إلى أجمل كنيسة - مثلاً - كما حدث في الجزائر يوماً ، فليبق المسلم وفياً للمبدأ المنسجم مع روح الإسلام. فلا يتخلى عنه في ثورة الانفعال ليبقى للنسالمين حظهم مع البر والعدل ، على مستوى المجادلة والمعاملة معاً.

أما الآية الثانية : فقد تحدثت عن هؤلاء الذين اعتدوا علينا مباشرة وبالقatal والإخراج من الديار أو خططوا وساعدوا من وراء الستار ، فهؤلاء لا ينالون شرف

(١) «العلاقات الدولية في الإسلام» الإمام : محمد أبو زهرة ط : دار الفكر العربي : ٥ .

(٢) سورة الممتحنة : ٨ ، ٩ .

صَلَّتْنَا وَبَرْنَا وَ مِنْ تَوَرُّطٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَنَاسَى ذَلِكَ الْعَدَوَانِ «فَوَاللَّهِ» فَهُوَ الظَّالِمُ حَقًّا ، لِأَنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَظَلَمَ دِينَهُ. وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ الْقَاعِدَةَ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ : السَّلَامُ ، فَالْإِسْلَامُ دِينُ هِدَايَةٍ وَرَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ .. وَآخِرُ الدَّوَاءِ فِي شَرْعَتِهِ السَّلَاحُ ، وَإِذَا حَمَلَ الْمُسْلِمُ سِلَاحَهُ فَلَرَدَّ الْعَدَوَانَ الْمُسْلِحَ. أَمَّا الشَّرْكُ : فَهُوَ مَرَضٌ فِكْرِي .. وَمَنْ ثَمَّ فَعَلَّاجُهُ بِالْحِكْمَةِ وَالْحَوَارِ وَمُوَاجَهَةُ الرَّأْيِ بِالرَّأْيِ. بِدَلِيلِ أَنَّ الَّذِينَ أُجِيزَ لَنَا بِرِهِمْ مُشْرِكُونَ ، .. «الْآيَاتَانِ وَرَدَتَا بِشَأْنِ مَعَامَلَةِ الْمُشْرِكِينَ» ، وَالْمُعْتَدِينَ أَيْضًا مُشْرِكُونَ .. فَلَوْ كَانَ الْإِسْلَامُ يَحَارِبُ الشَّرْكَ بِفَرْضِ التَّوْحِيدِ لِحَارِبِ الطَّائِفَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا. (١)

وَلَا يَقِفُ التَّسَامُحُ فِي الْإِسْلَامِ عِنْدَ حَدٍّ : إِنَّهُ يَمْضِي فِي مَعَامَلَتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ شَوْطًا آخَرَ تَحْكِيهِ سُورَةُ التَّوْبَةِ : لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ نَذِيرًا مَدْمَدِمًا ، يَصُبُّ غَضَبَهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ وَمِنْ عَهْدِهِمْ ، ثُمَّ إِمْهَالِهِمْ مَدَّةً مَعِينَةً ، يَقْعُونَ بَعْدَ انْقِضَائِهَا تَحْتَ طَائِلَةِ الْعِقَابِ عَلَى مَا قَدِمْتَ أَيْدِيَهُمْ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ تَنْزَلُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ حَامِلَةً مَعَانِي الْبِرِّ وَالْعَدْلِ حَتَّى فِي أَحْرَجِ اللَّحْظَاتِ بِإِتَاحَةِ الْفُرْصَةِ أَمَامَ الْغَادِرِينَ لِيَسْتَمِعُوا إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَعَلَّ وَعَسَى.

يَقُولُ سُبْحَانَهُ : «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» (٢) فَإِذَا رَغِبَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَهْمَا كَانَ مَوْقِعُهُ إِذَا طَلَبَ اللُّجُوءَ إِلَى دِيَارِ الْإِسْلَامِ فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِحَسَنِ اسْتِقْبَالِهِ مَتَى طَلَبَ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ الْحُرَّةِ وَجَسْنَ الْاسْتِقْبَالِ هُنَا يَتِيحُ لِمَدَارِكِ الْقَادِمِ وَلَا شَكَّ لَوْنًا مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ بِمَشَاعِرِ مُسْتَقَرَّةٍ ، فَإِنْ أَسْلَمَ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى فَلَنُصَحِّبَهُ مَكْرَمًا إِلَى وَطَنِهِ حِفَازًا عَلَى حَيَاتِهِ

وَهُنَا تَبْدُو مَلَامِحُ الْإِبَاءِ الْإِسْلَامِيِّ : فَنَحْنُ لَا نَسْمَعُهُ الْقُرْآنَ بِالْحِيلَةِ أَوْ الْقُوَّةِ ، إِنَّمَا نَتِيحُ لَهُ فُرْصَةً أَنْ يَسْمَعَهُ هُوَ وَبِمَحْضِ اخْتِيَارِهِ. وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ صَاحِبَ يَدٍ مَخْضُوبَةٍ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا بَأْسَ فَلَنَفْتَحَ لَهُ صَدُورَنَا فَقَدْ يَكُونُ جَاهِلًا ، وَقَدْ

(١) مِنْ أَجْلِ حِوَارٍ لَا يَفْسُدُ لِلْوُدِّ قَضِيَّةٌ : ٩٥ - ٩٧

(٢) سُورَةُ التَّوْبَةِ : الْآيَةُ ٦

يكون مخدوعا ، ولعله حين يعود إلى أهله ويسترجع ما رأى وما سمع ظهر له من سماحة المسلمين ، ولعله أن يعتنق الإسلام ، وفي دياره .. لا في ديار الإسلام التي لو أعلن إسلامه فيها فربما اتخذها الأعداء ذريعة للتشكيك في صحة إسلام فرض على الرجل !! وهكذا مع شقة الخلاف بيننا وبينهم تبقى شعبة من البر قائمة ، ولا نقطع الخيط بيننا وبينهم ، فلعل في بقاء قنوات الاتصال ما يبيح ، للشارد أن يعود إلى الحق يوما. (١)

وإذا كان هذا التسامح مع المشركين الذين يعفرون جباهم للوثن ، فإن دائرة التسامح تكون أرحب وأوسع مع أهل الكتاب من ذلك ما رواه ابن أبي حاتم - بإسناد - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ هِدَايَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ.....﴾ (٢) إن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة ، فلما كثر فقراء المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام (٣) وقد جاءت أحاديث كثيرة توصي بأهل الذمة خيراً ، منها قوله ﷺ : «من قتل معاهداً لم يرح رابحة الجنة إن ريحها ليوجد من مسافة أربعين عاماً» (٤) ، فلنتأمل كيف كان قتل الذمي - وهو على غير ديننا - يطوح بالقاتل - وهو على ديننا - بعيداً عن الجنة بمسافة زمنية تقدر بأربعين عاماً!!

(١) يراجع في ذلك : «من أجل حوار لا يفسد للود قضية» : ٩٧ - ٩٩

(١) سورة البقرة : ٢٧٢

(٢) ينظر في ذلك : تفسير ابن كثير : ١ / ٣٢٣ ، الظلال للشهيد «سيد قطب» : ١ / ٣١٤ .

(٣) رواد البخاري في ك : الجزية والموادعة ، ب : إثم من قتل معاهداً بغير جرم : ٦ /

ذلك بأن الإسلام يحترم الحياة ولو كانت في «هرة» تحبسها امرأة حتى تموت ، وإنها لتدخل النار بسبب ذلك .. فكيف إذا تعلق الأمر بحياة إنسان مثلي ومثلك؟ إن الأمر حينئذ يكون أشد هولاً ، وأفدح جرماً ، ثم إن بيننا وبينه عهداً لا ينبغي نقضه . وهناك رواية أخرى تقول : «من ظلم معاهداً .. » إن المتأمل في هذه الجملة يبدو له من سماحة الإسلام ومن عدله ما لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد ، لأن هذه الرواية تشير إلى أن حرمان القاتل من ربح الجنة غير مرصود للقاتل فقط ، بل إن ميزان الإسلام هنا ليدق حتى يسجل كل ظلم يقع على المعاهد ، ويدخر له العقاب الرادع ، وفاء منه للعهد ، وإعلاءً منه لحرية الإنسان ^(١).

ومن نور النبوة :

ترى موقفاً خالداً للنبي ﷺ تتجلى من خلاله سماحة الإسلام ، وبساطة العقيدة ، وتقديره لكرامة الإنسان على نحو شاهد بعظمة الإسلام ، وأنه حقاً هدية السماء إلى الأرض :-

لقد تسامح الرسول ﷺ - مع وفد نجران حينما دخلوا مسجد الإسلام ليؤدوا صلاة النصرانية مما يدل على سعة صدر الرسول ، وهو بذلك يرسم لنا القدوة والأسوة بحيث ينبغي للمؤمن ألا يضيق ذرعاً بمخالفه إذا وجد منهم ما ينكر ، وبحيث يعتصم بالصبر حين يحين النقاش فيجادل بالتي هي أحسن.

قال محمد بن جعفر بن الزبير - فيما روت كتب السيرة والتاريخ - : «قدم وفد نجران ، عليهم ثياب الحبرات ، وأردية ذات جمال وبهاء. يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ما رأينا وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ، فقال ﷺ : «دعوهم» فصلوا إلى المشرق ، وهم على اختلاف في شأن المسيح عليه السلام ، يقولون هو الله ويقولون : هو ولده ، ويقولون : ثالث ثلاثة. تعالى الله

(١) من أجل حوار لا يفسد للود قضية : ١٠٤ : ١٠٥ .

(٢) السابق : ١٢٧

عما يقولون علواً كبيراً .. ومع بعد الشقة بينهم وبين الفكرة الإسلامية إلا أنهم وجدوا في صدر الإسلام متسعاً (٢)

وهذا أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب - :-

يسير على ما سار عليه أمير الأنبياء ﷺ قال أبو يوسف : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. بباب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ، ضرير البصر . فضرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت؟ قال : يهودي . قال : فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله ، فرسخ له بشيء من المنزل - يعني أعطاه - ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه - وأمثاله - فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (١)

والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه (٢) ومعنى ذلك أن عمر رضي الله عنه يفسر المساكين في الآية الكريمة بأهل الكتاب .. وليس بعد ذلك قول .. أو بيان .

ومن جيل الصحابة - رضوان الله عليهم إلى عصرنا الحاضر لنرى وثيقة عظيمة منسوبة للسلطان محمد بن عبد الله سلطان المغرب في « ٥ فبراير ١٨٦٤ » كتب فيها إلى عماله والقائمين بأمره يقول :

«نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إياتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق ، والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام ، حتى لا يلحق أحد منهم مثقال ذرة من الظلم ، ولا يضام ، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم ، لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وألا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب

(١) سورة التوبة : الآية : ٦٠

(٢) من أجل حوار لا يفسد للود قضية : ١٠٧ ، ١٠٨ نقلا عن الخراج لأبي يوسف

أنفسهم ، وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه ، لا في حقهم ولا في حق غيرهم ، ولا نرضاه ، لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ، ومن ظلم أحدا منهم ، أو تعدي عليه فإننا نعاقبه بحول الله ..»^(١)

بكل هذا التسامح ، وبكل هذه الروح الإيمانية الحقّة تعامل المسلمون مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى على مر العصور .. وهذا ما شهد به كثير من الغربيين المنصفين. وهذا أحدهم ، ويدعى : «جبروم وجلن تاور» يقول : «إن فضيلة التسامح التي كانت أزهى السمات الخلقية في العرب ، والتي ندر أن تتوافر لغيرهم في جميع الأزمان. هذه هي السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيراً ، ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطري ، وذوقهم الفني ، ونزعاتهم لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح^(٢) هذا غيض من فيض وقليل من كثير ، ولا ينكر هذه السماحة التي تحلى بها المسلمون قديماً وحديثاً ، إلا فاسق أو جاحد ، ولا غرو ، فقديماً قال الشاعر :-

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

إذا : فالتعصب والجمود ليسا من الإسلام في شيء ، وهما قطيعة وجفوة لروح الإسلام ، واعتداء على الصورة الوضاعة النقية التي يرسمها المسلم الحقيقي لدينه.

(١) من أجل حوار لا يفسد للود قضية : ١٠٧.

(٢) المرجع السابق والموضع نفسه.

أهم النتائج والتوصيات

مما سبق ذكره نخلص إلى

١ - أن شريعة الإسلام أنزلت لتسعد الناس في الدارين: الدنيا والآخرة ، ولتحقق لهم مصالحهم بما ينسجم وقدراتهم العقلية التي أنعم الله بها على عباده ، ولم تتضمن الشريعة السماح أمرا لا يطيق الناس إتيانه أبدا ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(١) وقد يسر الله على عباده حتى يعملوا بهذا الدين في ظل المحبة لا القسر والإكراه ، وفي ذلك قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٢) وقوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ ^(٣) وكل الأحكام الشرعية حوت مصلحة العباد وحرصت على تحقيق النفع لهم .. وقد اتفقت كلمة علماء الأمة على أن أحكام الشريعة - كلها - معللة بمصالح العباد ، ولأجلها شرعت ، سواء منها ما هداانا الله لمعرفته بالنص عليه أو بالإيماء إليه ، وما لم نهتد إليه فلحكمة يعلمها الله جل شأنه ، ولذلك فإن كثيرا من الأحكام الإجتهاديه تتغير بتغير الأزمنة ، وقد تختلف باختلاف الأشخاص وطاقتهم وظروفهم .. ومادام الشارع الحكيم قد فتح باب اليسر للعباد ، وجعل مصلحة الناس معتبرة فلا يليق بأحد أن ينسب مخالفا له في أمر من هذه الأمور إلى كفر أو فسق أو بدعة ، بل عليه أن يلتزم لمخالفة من الأعداء ما يجعل حبل الود موصولا بينهما ، فيحظى بحبه وتقديره ، ويرعى أخوته ووداده.

٢ - أن يدرك الجميع أن من أهم الواجبات التي ينبغي للجميع أن يحافظ عليها ويراعيها وحدة المسلمين وعدم تفرقهم ، ونبذ كل ما يسئ إلى هذه

(١) سورة الحج : الآية : ٧٨

(٢) سورة البقرة : الآية : ١٨٥

(٣) سورة النساء : آية : ٢٨

الوحدة أو يضعف من عراها ، لأن هذا العمل عبادة من أهم العبادات ، وقربة من أفضل القربات ، حتى يمكن التصدي لكل العقبات التي تعيق استئناف الحياة الإسلامية في الداخل والخارج ، ومن العجيب أن نرى أعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم قد وحدوا كلمتهم فيما بينهم ضد الإسلام ، وكان المسلمين - كما قيل - قد اتفقوا على ألا يتفقوا.

٣- ولعل مما يساعد على التقليل من أسباب الشقاق والاختلاف في الوقت الحاضر: معرفة أسباب اختلاف الفقهاء من السلف - رضوان الله عليهم - ، وفهم تلك الأسباب ، ومدى موضوعيتها ، ليكون ذلك من بواعث التمسك بـ "أدب الاختلاف" فإنهم حين اختلفوا ، إنما اختلفوا لأسباب موضوعية ، وكانوا جميعا مجتهدين ، وكان كل واحد منهم في طلب الحق كناشد ضالة لا فرق لديه بين أن تظهر تلك الضالة على يديه أو على يدي سواه.

٤- ومن الأمور المفيدة والهامة في حمل المسلمين على التمسك بآداب الاختلاف معرفة المخاطر الهائلة ، والتحديات الخطيرة والخطط الماكرة التي يعدها أعداء الإسلام للقضاء على العاملين للإسلام على اختلاف مذاهبهم وتباين وجهات نظرهم ، وهذا يجعل إثارة أي اختلاف بين المسلمين أو تنمية أسبابه ، أو تجاوز آدابه خيانة عظمى لأهداف الأمة ، وجريمة كبرى في حقها لا يمكن تبريرها أو الاعتذار عنها بحال.

٥- وقبل هذا وبعده لا مناص من التزام تقوى الله في السر والعلن ، وابتغاء رضاه في حالتي الوفاق والخلاف ، مع الحرص على فقه دين الله ، والتجرد عن الهوى والبعد عن نزعات الشيطان ، ومعرفة سبل إبليس - لعنه الله - والحذر من شراكه ، وحسب الأمة ما لقيت وعانت ، وقد آن الأوان لتثوب إلى رشدها ، وتستنير بكتاب ربها ، وتعض على سنة نبيها صلى الله عليه وسلم بالنواجذ ولعل الله يكتب إنقاذ الأمة على أيدي هذا الجيل من أبنائه البررة ، إذا صدقت النية مع الله ، واتخذت من السبل ما هو كفيل بقيادة الركب نحو

شاطئ الأمان ، بعد أن طال ليل التيه والضلال ولا يخلن الصالحون من الأمان
بالدعاء للعصبة المؤمنة بالسداد والتوفيق..
وأسأل الله تعالى أن يجمع على الحق كلمة هذه الأمة ويوحد بين صفوفها وأن
ينصرها على أعدائها ، ويلهمها الرشد والسداد في الأمور كلها ... آمين
آمين..

خاتمة

وبعد : فهذا جهد المقل ، ويعلم الله أنني بذلت ما في طاقتي وما في وسعي لإخراج هذا البحث بصورة طيبة ، فإن صاحبني التوفيق فيما كتبت فذلك من فضل الله علي ، وله سبحانه وحده الفضل والمنة ، وإن كانت الأخرى فمني ومن نفسي ، وكل جهد بشري عرضة للخطأ والقصور ، وكما قال الإمام مالك : بأن كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا المعصوم ﷺ.

وأدعو الله العلي القدير أن يغفر لي زلاتي وأن يتجاوز عن أخطائي ، إنه سميع قريب مجيب وحسبي في ذلك أني أجالس العلماء ، فكما قيل : «جالسوا العلماء : فإن أحسنتم حمدوكم ، وإن أخطأتم لم يعنفوكم» .. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. »

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى اللهم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور ، حمادة حسن الفخراي

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين بالزقازيق

ثبت بأهم المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- من كتب التفسير :
 - أ- تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن كثير.
 - ب- تفسير الكشاف : للعلامة «الزمخشري»
 - ج- في ظلال القرآن : للأستاذ «سيد قطب»
 - د- مفاتيح الغيب : للإمام «فخر الدين الرازي»
- ٣- من كتب السنة :
 - أ- صحيح البخاري
 - ب- صحيح مسلم
 - ج- سنن ابن ماجه
 - د- سنن الترمزي
 - هـ- مسند الإمام أحمد
- ٤- من معاجم اللغة :
 - أ- لسان العرب لابن منظور.
 - ب- مختار الصحاح
 - ج- المصباح المنير.
- ٥- كتب عامة :
 - أ- أخلاق العلماء : أبو بكر الآجري.
 - ب- أدب الحوار والمناظرة : د/ علي جريشة.
 - ج- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة : د/ مصلح بيومي.
 - د- الدعوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة : د/ محمد رجب الشتوي.
 - هـ- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين : الشيخ / محمد الغزالي.

- و- رفع الملام عن الأئمة الأعلام : للإمام «ابن تيمية»
- ز- العلاقات الدولية في الإسلام : الإمام الشيخ «محمد أبو زهرة».

بقية المراجع

- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم : د/ يوسف القرضاوي.
 - عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية : د/ يوسف القرضاوي.
 - مفاهيم تربوية «الجزء الأول» : للأستاذ : محمد عبد الله الخطيب.
 - من أجل حوار لا يفسد للود قضية : د/ محمود محمد عمارة.
 - ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين : فضيلة الشيخ «عبد الجليل عيسى»
 - وحدة العمل الإسلامي في القطر الواحد : الأستاذ / مصطفى مشهور.
- وكتب ومراجع أخرى ذكرتها ضمن البحث
- والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل